كلمات

التقاط الألماس من كلام الناس

د. يوسف زيدان

دار نهضة مصر للنشر

كلمات

التقاط الألماس من كلام الناس

د. يوسف زيدان

دار نهضة مصر
للنشر

العنوان:

كلمـــات (التقاط الألماس من كلام الناس)

تأليف:

د. يوسف زيدان

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولى: 9-4213-14-977
رقم الإيداع: 2007/26374
الطبعة الرابعة: يناير 2011

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة

مقدمة

تضمُّ صفحاتُ هذا الكتاب تأملاتٍ متواليةً استغرقتُ فيها أوقاتًا طوالًا ، محدِّقًا فى (المفردات) التى تجرى على الألسنة. وهى مفرداتٌ تبدو للوهلة الأولى محدودة الدلالة بسيطة المعنى. غير أن التأمل فيها يكشف عن الكثير من المعانى المضمرة، والشواهد المؤكِّدة أن (التواصل) بين المراحل الثقافية المتعاقبة، إنما يظهر على استحياءٍ وعلى نحوٍ من الغموض، فى عديد من الدلائل التى تخفيها اللغة بين طيَّات كلماتها وتعبيراتها؛ ولذلك، فالناسُ فى بلادنا تجرى على ألسنتهم كلمات، معظمها عاميٌّ وبعضها فصيحٌ، يستعملونها فى حياتهم بيسرٍ وتلقائيةٍ (وأحيانًا باستهانة) من دون أن يدروا بما تخفيه **الكلمة** بين حروفها من معنى عميق، بل طبقات متراكبة من المعانى، تراكمت بفعل الامتداد الطويل لتاريخنا الثقافى.

والكلمات عمومًا هى رَسْمُ العالم فى الأذهان، فالوعى الجماعى والفردى يصوغ صورة العالم فى الذهن، عبر عدد من الكلمات التى تتألف منها اللغة؛ ولذلك فإننا حين نفكِّر، وحين ندرك، وحتى حين نحلم؛ فإننا نقوم بتلك الأنشطة الذهنية كلِّها، من خلال اللغة والكلمات.. ومن ثَمَّ، فالكلمات هى مفاتيحُ المعرفة، وهى حدودُ المعانى، وهى وجودُ الأشياء فى العقل الإنسانى، وربما فى العقل الإلهى أيضًا! بحسب ما جاء فى الآية القرآنية البديعة ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾، ونلاحظ هنا أن (كلمات ربى) تكرَّرت مرتين؛ لتوكيد هذا المعنى العميق الدال على أن الكلمات هى الوجود؛ وللإشارة إلى أن كلمات الله هى أمرٌ يفوق الإدراك والإحاطة؛ ولذا نرى (المسيح) على جلال قدره، يوصف فى القرآن بأنه: كلمةٌ من الله.

من هذه الزاوية ننظر فى **الكلمات** فنراها أبوابًا واسعة للفهم، وسُبلًا فسيحة للمعرفة. سواءٌ كانت معرفة ظاهرة بوضوح فى الألفاظ، أو معارف دقيقة ومدهشة كامنة فى الكلمات، على ما سوف نراه فى (موضوعات) هذا الكتاب. ومن المهم هنا الإشارة إلى أننى أفرِّق تفرقةً خاصة بين اللفظ والكلمة، باعتبار أن (اللفظ) هو المقولُ بشكل عام، وهو كل ما يُنطق به؛ سواء كان له معنى فى ذاته أم لا. فاللفظُ (صوتٌ) يدل على أمرٍ يخص المتلفِّظ، مثلما هو الحال فى الزفرات التى يُصدرها المحزون والمكلوم والمأزوم، والتى يكون (المعنى) فيها مرتبطًا بالضرورة بالشخص المتلفِّظ بهذا (الصوت) أو ذاك، فلا يمكن إدراك الدلالة إدراكًا تامًّا، إلا بالإضافة إليه والعطف عليه. وقد يدل (الصوت) على معنى عام تواضعت عليه الجماعة واعتادت، كما هو الحال فى (التأوُّه) الذى يدلُّ لفظُهُ (آه) على الشكوى أو البوح أو تبريح الجوى، وقد يدلُّ أيضًا على الاستحسان أو الموافقة، أو لوم المحبوب إذا قلنا له مثلًا: آه منك.. وفى هذه الحالة ومثلها الكثير، يكون (المعنى) قد ارتبط فى اللفظ بحال الفاعل تخصيصًا.

فما يدلُّ بصاحبه، فهو (لفظ) حتى وإن كان مركبًا من عدة أصوات. أما الذى يدل بذاته، بصرف النظر عن قائله، فهو (كلمة) حتى وإن كانت بسيطة التركيب، محدودة الصوت. وعلى ذلك، فالكلمة عندى هى كُلُّ ما له معنًى مستقلٌّ عن المتلفِّظ؛ ولذلك، فإن كُلَّ (كلمة) لفظٌ، ولكن ليس كل (لفظ) كلمةً.

* * *

وتضم صفحات هذا الكتاب أطرافًا متنوعة تسعى لتبيان معانى (كلمات) خصَّصنا لكل كلمة منها فصلًا قد يطول أو يقصر، بحسب ما يلزمه الغوص فى طبقات المعانى المحتجبة خلف هذه الكلمة أو تلك، مهما كانت قليلة الحروف. مثلما هو الحال فى كلمة بدء الوجود (كن) التى ابتدأنا بها فصول الكتاب.

وكان ابتداءُ هذا المسار سلسلةً من المقالات التى نشرتها، ومازلتُ أنشرها أسبوعيًّا بجريدة الوفد المصرية. وكانت فكرتى الأولى الداعية إلى كتابتها، أن أتوقف كل أسبوع عند واحدة من الكلمات؛ للنظر فى معانيها العميقة. ثم تطوَّر الأمر إلى بحث

الحدود الدلالية للكلمات؛ لتعميق الوعى باللغة التى نستخدمها، وللنظر فى (انقلاب) المعنى فى الكلمة الواحدة أحيانًا، من الضد إلى الضد، حتى إننا نستخدم أحيانًا (كلمات) قاصدين بها معنًى معاصرًا، هو فى واقع الأمر نقيضُ المعنى الأصلى للكلمة.

وقد أشار لى بعض الأصدقاء بضرورة نشر المقالات فى كتاب، فكنتُ أتعلَّل بأن الأمر لا يستحق؛ فما هى إلا خطراتٌ ونظراتٌ استشرافية، فى حدود المعانى المترامية بقلب هذه الكلمة أو تلك. ولما اتسع المدى مع دخول مقالاتى الأسبوعية عامها الثانى، ومع تعمُّق النظر فى معانى الكلمات لم يعد التعلُّل مقنعًا. خاصةً مع اضطرارى للإيجاز فى كتابة عديد من تلك المقالات؛ حتى تتناسب مع المساحة المخصصة للنشر، مع ما يقتضيه ذلك من إهدار لكثيرٍ من المعانى التى كان يجب الوقوف عندها فى هذه الكلمة أو تلك. وبالطبع، فمن شأن (الإيجاز) أن يخلَّ أحيانًا بالمعنى، ويقلِّل من الأهمية الدلالية للكلمات.

ومن طبيعة النشر فى الصحف أنه قد يختلُّ سياقه مع إسقاط بعض العبارات والفقرات عن عمد أو غير عمد، وقد تتشوَّش الفكرة مع الأخطاء المطبعية التى صارت فى جرائدنا كلها أمرًا لا غنى عنه؛ ولذلك اقتضى نشر (الكلمات) فى هذا الكتاب إعادة بناء للنصوص السابق نشرها كمقالات، وإعادة كتابة بعضها كليةً. وقد نشرتها هنا كاملةً، بما فى ذلك بعضها الذى ما كان من الممكن أن يُنشر هناك. وعلى ذلك، فإن فصول هذا (الكتاب) هى الصورة الأقرب لناتج النظر فى مدلولات الكلمات، ولنتائج التأملات والمناقشات التى أعقبت نشرها مسلسلةً.

وقد جعلتُ العنوان الجانبى للكتاب (التقاط الألماس..) انطلاقًا من أن عديدًا من الكلمات صار بحكم تراكم الطبقات المعرفية فوقه مثل فحم الأرض الذى صار ألماسًا، لما طال عليه الأمدُ.. وما كل الكلام ألماسًا، وإنما هى مفردات بعينها، التقطتها كما تُلتقط فصوص الألماس، من كلام الناس.

د. يوسف زيدان

الإسكندرية فى أواخر 2007

1 كُـــنْ

من المناسب أن نفتتح فصول هذا الكتاب بالكلمة الافتتاحية للوجود، بحسب المفهوم العربى الإسلامى. وهى كلمة (كُنْ) التى تضم بين حرفيها عالمًا رحبًا من الدلالات العميقة التى تغوص بجذورها، كما سنرى، حتى تصل إلى ما هو أسبق زمنًا من ثقافتنا العربية الإسلامية. فنقول فى ذلك، والله المستعان:

كان قدماءُ الفلاسفة اليونانيين من قبل الديانات (السماوية) يقرِّرون أن الوجود ابتدأ من الكلمة أو اللوجوس، وقد أضاف بعضهم عند تفسيره لنشأة الوجود، العقلَ أو (النوس) كمبدأ رئيسٍ يشارك (اللوجوس) فى التفسير الوجودى (الأنطولوجى) للعالم. وللفلاسفة اليونانيين أفكارٌ بديعة وتفانين فى بيان انبثاق الموجودات عن الكلمة (اللوجوس) وفقًا للعقل (النوس) وهو ما يضيق المقام هنا عن الخوض فيه تفصيلًا، ويمكن الرجوع بصدده إلى المصادر الخاصة بتاريخ الفلسفة اليونانية، لاسيما المصادر والمراجع التى أرَّخت لهذه الفلسفة فى طورها المبكر.

ثم جاء الفكرُ الدينى، ومن قبله جاءت النصوصُ اليهودية والمسيحية؛ لتأكيد ما ذهب إليه قدماء الفلاسفة، مع صرف المعنى إلى نواحٍ أخرى لم تكن تخطر للفلاسفة على بال. فعلى سبيل المثال، ابتدأ إنجيل يوحنا وهو أحد الأناجيل (الأربعة) المعتمدة عند المذاهب المسيحية كافة بالآيات التى تقول: فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، هذا كان فى البدء عند الله، كل شىء به كان، وبغيره لم يكن شىء مما كان.

وأول ما يلفتُ النظر فى الآية الأولى، من حيث اللغة العربية التى تُرجم إليها الإنجيل عن اليونانية (مع أن المسيح كان يتكلم بالآرامية!) أن الفعل **(كان)** جاء مذكَّرًا، مع أنه يشير إلى الكلمة التى هى مؤنَّثة. ولا يفوتنا أيضًا أنَّ قوله (فى البدء كان الكلمة) يطابق على المستوى العام ما قرره الفلاسفة من قبل، لكنه سوف يتخذ مع الآيات التالية مسارًا جديدًا، تكون (الكلمة) فيه دالةً على شخص المسيح الذى هو (ابن الله) كما صرَّحت بذلك الآية الحادية والثلاثون (الأخيرة) من الإصحاح العشرين من الإنجيل ذاته، حيث نقرأ: لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فإذا آمنتم نلتم باسمه الحياة. وفى خطوة تالية سوف تُعلن الكنائس الأرثوذكسية إيمانها بأن المسيح (الكلمة) ليس ابن الله فحسب، وإنما هو **الله** ذاته! وبذلك صارت **اللوجوس** مرادفةً للإله فى المعتقد الأرثوذكسى.. وتعنى كلمة الأرثوذكسية: الإيمان القويم.

وقد اقترن (النوس) بالكلمة فى أعمال الشرَّاح المتأخرين للأناجيل، وهو ما يظهر فى تفسير واحدٍ من أقطاب الكنيسة المصرية المعاصرين، الأب **متى المسكين** لإنجيل يوحنا، حيث يقول ما نصه: الآيات الأولى من إنجيل يوحنا، استعلانٌ لأعمق أسرار الله.. ثم يضيف: هذا هو يسوع المسيح فيما قبل التجسد، لم يره القديس يوحنا فى طبيعة البشر، بل فى طبيعة الله الكلية.. ليس إلهًا ثانيًا، ولكن واحدًا مع الله فى الألوهة، لا يفارقه، كالكلمة فى (العقل) فلا العقل يوجد بدونه، ولا الكلمة توجد بدون العقل.. فهو إذن: الكلمة الكلية المطلقة، وهو: الكلمة فى مضمونها الكلى.

ونظرًا لمحورية هذه المسألة فى العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، فإن الأب متى المسكين يضيف فى شرحه (معلومة) من شأنها تأكيد اقتران الكلمة والله، ويضفى على (الحقيقة) التى يقررها لمسةً سماوية بقوله: لقد اتفق الآباء القدِّيسون الذين قدَّموا شرحًا لإنجيل يوحنا، خاصة ذهبى الفم وأغسطينوس، على أن هذه المقدمة للإنجيل ليست من وضع البشر؛ فهى تحمل طابع الإملاء من روح القدس[1]..

(1) متى المسكين: شرح إنجيل القديس يوحنا (مطبعة دير الأنبا مقار، وادى النطرون 1990) المجلد الأول، ص 21. والمفسر الشهير، القديس ذهبى الفم المشار إليه، هو يوحنا فم الذهب أسقف أنطاكية، المتوفى سنة 397 ميلادية.. وأغسطينوس هو القديس أوغسطين، أسقف مدينة (هيبو) بشمال إفريقيا، فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى.

وبحسب العقيدة الأرثوذكسية، فإن **روح القدس** هو الله أيضًا؛ إذ هو الثلث الثالث فى ثالوث: الأب، الابن، روح القدس.

ومن قبل ظهور إنجيل **يوحنا** بقرابة خمسة قرون من الزمان، ابتدأت التوراة (أسفار موسى الخمسة) بالآيات الشهيرة فى مطلع **سفر التكوين** حيث نقرأ: فى البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظُلمةٌ، وروح الله يرفُّ على وجه المياه. ومن الناحية الوجودية (الأنطولوجية) يمكن للوهلة الأولى رَدُّ المفهوم التوراتى لبدء الخلق إلى التصور المصرى القديم لعملية نشأة الكون. ففى مصر القديمة اعتقد الناسُ منذ وقت مبكر أن الوجود ابتدأ من الماء، بفعل الشمس! فقد لاحظ المصرىُّ القديم أن منطقة (الدلتا) كانت فى الزمن القديم منطقة أحراشٍ ومستنقعات (خربة وخالية) بسبب انداياح ماء النيل هناك، قبل أن يحفر فرعيه المعروفين حاليًّا.. وكانت الشمس تسطع عليها، ولا تصل إلى قاعها من كثافة الأحراش (على وجه الغمر ظلمة). فكأن الشمس التى رسمها المصرى القديم مجنَّحة (ترفُّ على وجه المياه) هى مجلى الإله.. ومع توالى السنين والأزمنة، ظهرت الأرض أمام المصرى القديم، من الماء، بفعل السطوع الدائم للشمس (رع) التى هى المظهر المجنَّح للإله المختفى (آمون) و هى التى عَدَّها **إخناتون**، من بعد، صورة (آتون) الإله الأوحد. المهم أن الوجود ابتدأ فى وعى المصرى القديم من الماء، وكانت (الكلمة) على نحو ما، هى **الشمس** المعبودة باعتبارها وجهًا للإله.

وقد صاغت **التوراة** ذلك كله فى الآيات الأولى من (الكتاب المقدس) مثلما اقتبسته الفلسفة اليونانية المبكرة من المصريين. فكان ابتداء فلسفة اليونان كلها مع أول الفلاسفة (طاليس) الذى قضى فترة من حياته بمصر، وعاد لليونان، فافتتح هناك ما سوف يسمى (فلسفة) بمقولته الشهيرة: بدأ الوجود من الماء، فالماءُ أصلُ الأشياء كلها.

ولأغراض عقائدية وتاريخية يطول شرحها، كان لابد للمسيحية أن تستقل بذاتها عن المفهوم التوراتى، من دون أن تفارقه تمامًا؛ ولذلك فإن الآيات الأولى من سفر **التكوين** صار لها مفهومها الوجودى العام (الأنطولوجى) بينما نُظر

إلى الآيات الأولى من إنجيل **يوحنا** على أساسٍ إلهيٍّ (ثيولوجى) فلم تعد اللوجوس أو الكلمة ذات طبيعة مادية أرضية! وإنما صارت لها معانٍ ربانية. وهو ما يظهر واضحًا فيما يقرِّره الأبُ متى المسكين فى أثناء شرحه سالفَ الذكر (المجلد الأول، ص 25) حيث يقول بوضوح: البدء فى إنجيل يوحنا ليس هو البدء فى سفر التكوين؛ لأن بدء سفر التكوين هو الخَلْق، أى بدء الزمن، أما البدء فى إنجيل يوحنا فهو ما قبل الخلق والزمن والتاريخ والإدراك، وليس قبل الخلق إلا الله! ولكن القديس يوحنا لم يكتب: فى البدء كان الله؛ لأنه لم يكن بصدد الحديث أو الإعلان عن الله، بل قال: فى البدء كان الكلمة؛ لأنه سيتكلم عن الخلق الذى تمَّ بكلمة الله، ولن يتوقف عند الخلق كسفر التكوين، بل سيتجاوزه إلى (الخلاص) الذى تم بتجسُّد الكلمة.

وهذا المفهوم للكلمة (المسيح) باعتبارها أصل الأشياء كلها، وبأنها موجودة أصلًا قبل الأشياء وبعدها؛ كان هو الأصل فيما قَرَّره صوفيةُ المسلمين بعد ذلك بزمن طويل، من قولهم بقِدَم (النور المحمدى) الذى أقاموا دليلهم عليه، بالحديث: **كنتُ نبيًا وآدم بين الطين والماء**.. وهو اعتقادٌ تجلى أيضًا عند بعض مذاهب الشيعة. غير أن ذلك كله لا يرتبط بشكل مباشر بما نحن بصدد الكلام عنه الآن، فلنرجع إلى ما كنا فيه؛ لتبيان صلة ما سبق بالمفهوم العربى / الإسلامى لكلمة (كن).

تكمن الصلة بين الأمرين فى أن الترجمات العربية لإنجيل **يوحنا** ـ وهى بالطبع ترجمات قديمة تسبق ظهور الإسلام زمنًا ـ استخدمت الفعل المذكر (كان) للإشارة إلى (الكلمة) المؤنثة، وهو ما فهم منه الناس أن المراد بالكلمة هو يسوع (عيسى) المسيح. وهو الفهم الذى أكَّده الفكر الإسلامى، مستندًا إلى الآية القرآنية التى تصف السيد المسيح بأنه (كلمة منه) أى من الله، وهو ليس (كلمة الله) أو: الله متجسدًا فى الكلمة.

وقد ثارت خلال القرون الخمسة الأولى للمسيحية خلافاتٌ لا حدود لها حول دلالة كون المسيح (كلمة) الله، وهل الكلمة تعنى (الأقنوم) أو (الطبيعة) أو (الابن) وهى الخلافات التى لم تنته إلا بعدما أنهت وحدةَ الكنيسة، وأدَّت إلى انقسامات مذهبية حادة، لا تزال آثارها مستمرةً إلى اليوم بين الكنائس، على النحو الذى سوف نعرض له تفصيلًا فيما بعد. أما هنا، فنود الإشارة إلى أن القرآن الكريم قدَّم

حلًّا عبقريًّا لمشكلة اللاهوت المسيحى الكبرى، حين عرض الأمر فى الآيات على النحو التالى: ﴿**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾.

وقد جاء الإسلام ليؤكد أن الوجود بدأ بالكلمة، وهى فى الإسلام: كن.. قالها الله فابتدأ الوجود، ويقولها دائمًا فيدوم الوجود. وقد أُشير إلى مسألة استمرار الخلق الإلهى فى الكون بالآية القرآنية التى طالما وقف أمامها المسلمون متأمِّلين ومُؤوِّلين: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾.. وبذلك خرج أمر الكلمة عن الاقتصار على المسيح إلى المعنى العام للوجود كله.

والكلمة (كن) فى الوعى الإسلامى لا تنقطع، وإلا انقطع الوجود. ومفهومُ الإيجاد بـ (كن) استتر فى الفكر الإسلامى زمنًا طويلًا؛ حتى مضت القرونُ التى جاءت بعدها جماعةٌ من كبار الصوفية الفلاسفة، فقالوا إن (الولى) يكتسب من الله قدرة الكلمة الخالقة. وهم يستندون فى ذلك للحديث القدسي: مازال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه.. ويكون عبدًا ربانيًّا يقول للشىء كُن فيكون!

وهكذا صار (التكوين) شأنًا إنسانيًّا مثلما هو شأنٌ إلهى، وإن شئت الدقة قلت: صارت (كن) عطيةً إلهيةً لخواص الأولياء، فاشترك الإنسانُ مع الله فى الإيجاد، وانفتح بهذا بابٌ واسعٌ للفاعلية الإنسانية التى تعلو حتى تقارب القدرة الإلهية، أو هى بعبارة أخرى: تستعير من القدرة الإلهية ما يتأكَّد به فعلُ الإنسان فى الأكوان! غير أن هذا المفهوم الصوفى لم يتطوَّر بالقدر الكافى فى ثقافتنا، ولم يتم تفعيله وتعميمه؛ ومن ثم غاب مع الزمن عن وعى الناس، بل تناساه الصوفية المتأخرون، مع أنه كان أحد الأفكار الصوفية الأساسية عند متصوفة القرنين السادس والسابع الهجريين.

كانت (كن) حاضرة فى فكرنا، ثم صارت اليوم بعيدة عنا.. لم نعد نُعنى بالإيجاد، وتركنا للآخرين سلطة التكوين والتشكيل فينا. يقولون لنا (كونوا) فنكون.. على النحو الذى يريدونه.

2 خَبَرٌ

اختلفت الآراء حول **ابن خلدون**[1] ما بين متعصبٍ له ومتعصبٍ عليه، وهذا على كل حالٍ حالُ الناس مع الناس الذين نبغوا فى زمانهم، وصاروا علاماتٍ على طريق الإنسانية. وقد كان ابن خلدون، بقطع النظر عن اختلاف الآراء فيه، عبقريًّا.. ومن آيات عبقريته قوله فى عبارة لافتة للنظر، أوردها فى مقدمته الشهيرة التى هى مقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) نصُّها: حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال[2]. وفى قوله: «عمران العالم» إشارةٌ إلى العلم الجديد الذى اخترعه ابن خلدون، وذكر صراحةً أنه: لم يسبقه إليه أحد.. وهو (علم العمران) الذى نسميه اليوم علم الاجتماع.

ولسنا هنا بصدد الكلام عن (العلم) الجديد الذى ابتكره ابن خلدون وحدَّد فيه (القوانين) أو المبادئ التى تحكم قيام المجتمعات وسقوطها، وإنما مرادنا التوقف عند قوله: حقيقة التاريخ أنه خبر! وهى عبارةٌ متقنةٌ فى صياغتها، تدعونا إلى كثير من التأمل.. فالتاريخ فى جوهره ليس وقائع جرت فى الماضى، وليس أحداثًا متسلسلة حَدَثَتْ مع توالى الأيام والسنين، وليس حقائق لأمور طواها عنا الماضى القريب والبعيد؛ وإنما هو (خبر) وصلنا! أو هو (حكاية) مفردة لواقعة واحدة من وقائع

---

(1) هو المؤرخ الشهير، ورائد علم الاجتماع المبكر: عبد الرحمن بن محمد الحضرمى الإشبيلى، ولد سنة 732هـ (1332م) بتونس، ورحل إلى بلاد المغرب ونزل مصر وتولى فيها قضاء المالكية.. كتب كثيرًا وكتب عنه كثيرون، وتوفى فجأة بالقاهرة سنة 808 هـ (1406م).

(2) ابن خلدون: المقدمة (مكتبة لبنان 1990) ص 35.

كثيرة. بعضها معروفٌ مشهورٌ، وبعضها الآخر مستورٌ مطمورٌ؛ لأنه لم تصلنا عنه أخبار!

حقيقة التاريخ أنه خبر.. والخبرُ بحسب كلام ابن خلدون ـ والطبرى وابن النفيس من قبله ـ ليس مأمون الصدق. ولنتأمل قول ابن خلدون فى مقدمته استكمالاً لعباراته السابقة: الكذب متطرق إلى (الخبر) بطبعه ولذلك أسباب، منها التشيعات للآراء والمذاهب، والثقة بالناقلين، والذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه، فيقع فى الكذب.

هذا كلام ابن خلدون بنصِّه، وهو يكاد يطابق فى معناه ما يذكره الإمام الطبرى، حين يقول متبرئًا مما قد يَرِدُ فى كتابه من أخبارٍ كاذبة: العلمُ بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء المُحْدَثِين غيرُ واصلٍ إلا بإخبار المُخْبِرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول.. وإن يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه.. فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قِبَلنا، وإنما أتى ذلك من قِبَل ناقليه إلينا، وإنا إنما أدَّيْناه على نحو ما أُدِّى إلينا(1).

أما عبارة العلامة علاء الدين ابن النفيس، فكانت أكثر حسمًا وأكثر بلاغةً، ففى كتابه الذى نشرته محققًا قبل عشرين سنة (المختصر فى أصول علم الحديث النبوى) يقول ما نصُّه: وأما الأخبارُ (الأحاديث الشريفة) التى بأيدينا الآن، فإنما نتبع فيها غالب الظن، لا العلم المحقق(2).

وهذه العبارات والنصوص الفصوص، هى مقدمات أردت أن أُورِدَها هنا؛ لتكون تمهيدًا لما سنقوم به من إعادة النظر فى (أخبار مشهورة) يعتقد الناسُ اليوم فى صحتها، مع أنها لا يمكن أن تكون صحيحة.. ولسوف نسير، فيما يأتى، على القاعدة التى وضعها ابن خلدون فى مقدمته ولم يلتزم أحدٌ بها، بل هو نفسه لم يلتزم بها فى أحيان كثيرة! أعنى القاعدة التى تقول: علينا إعمال العقل فى الخبر.. وقد

(1) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف، الطبعة السادسة) 1/8.
(2) ابن النفيس: المختصر (الدار المصرية اللبنانية 1991) ص 115.

أشار من خلالها ابن خلدون ـ على سبيل المثال ـ إلى استحالة صحة الخبر المشهور القائل إن اليهود حين خرجوا من مصر بقيادة النبى موسى، كان عددهم نصف مليون شخص! وكَذَّب ذلك بأسانيد كثيرة.

ولنا فيما يلى عدة وقفات عند أخبار مشهورة نتبع فيها (غالب الظن لا العلم المحقق) ولسوف تكون وقفتنا الأولى مع هذه الأخبار الوهمية التى وصلتنا من الأزمنة القديمة، وصارت مع مرور الزمان كأنها الحقيقة؛ أمام خبر لم يصلنا مكتوبًا، بل مرسومًا :

قَادِش

هذه (الكلمة) هى اسمٌ لموقعة حربية شهيرة جرت فى الأزمنة القديمة، وهى فى الأصل اسمُ بلدةٍ تقع على نهر العاصى، بالقرب من مدينة حلب الحالية. والمفترض أن موقعة قادش هذه انتصر فيها رمسيسُ الثانى على الحيثيين سنة 1285 قبل الميلاد، وهى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى؛ إذ كانوا، قديمًا، يؤرِّخون لوقائع الزمان، بحسب سنة تولِّى الملوك للحكم.

وأشهر (خبر) عن هذه الموقعة وصلنا مرسومًا على جدران معابد مصرية قديمة، فى الصورة المشهورة التى يظهر فيها رمسيس الثانى وهو يلقى بسهامه من فوق عجلة حربية ينطلق بها حصانان رشيقان، وقد تناثر على الأرض القتلى من أعدائه. ولاتزال هذه (الصورة/ الخبر) باقية إلى اليوم فى عدة مواقع أثرية، حيث نراها فى أصلها المرسوم على جدران معابد أبو سمبل والكرنك والأقصر والرامسيوم (البر الغربى). وهى أيضًا محفورة بأذهاننا؛ لأننا كثيرًا ما نراها مطبوعةً على أوراق النقد المتداولة اليوم، أو مقلَّدةً فى الجداريات الحديثة التى يبتكرها فنانونا المعاصرون.

لدينا إذن صورة **خبرٍ** مشهورٍ متداول عن نصرٍ قديمٍ يؤكِّد فى أذهاننا أن مصر كانت دومًا سيدة الدنيا وأم البلاد. وأرى من الضرورى أن نتأمل قليلًا هذا

الخبر، وأن نطبق عليه القاعدة الواردة فى قول ابن خلدون: ينبغى علينا إعمال العقل فى الخبر.

أول ما يلفت النظر فى هذه الصورة/ الخبر هو أن **رمسيس الثانى** مرسومٌ وحده. فلا الجيش المصرى موجودٌ فى الصورة، ولا حتى سائق العربة الحربية، الذى كانت مهمته التحكُّم فى العربة؛ لإفساح المجال أمام الرماة لإطلاق السهام. لا شىء فى الصورة إلا رمسيس الثانى، والمغلوبون من الحيثيين، وكأن هذا النصر هو فعلُ شخصٍ واحد ملكٍ، هو الملكُ الوحيد! ثم جاءت قصائد الشاعر المصرى القديم **بنتاأور** لتؤكِّد النصر الساحقَ لرمسيس الثانى على ملك خيتا وجيشه من الحيثيين الذين كانوا أيامها يسكنون آسيا الوسطى.

وفى واقع الأمر، فإن **قادش** لم تكن نصرًا مؤزَّرًا لرمسيس الثانى على الحيثيين. بل إن رمسيس الثانى حوصر هناك؛ لأنه تَهوَّر وتقدَّم عن جيشه بحامية صغيرة، فأحاط به جيشُ الحيثيين، ولم ينقذه منهم إلا طلابُ المدرسة الحربية المصرية بمدينة (حلب) الذين كانوا فى طريقهم للترحيب بقدومه! وعاونه هؤلاء **الشباب** حتى خرج من مأزقه، وفلت من الأسر أو الموت. ومن بعد ذلك، تقاتل الجيشان سنواتٍ طوالًا، حتى عقد رمسيس الثانى مع ملك (خيتا) معاهدة صلح شبيهة بكامب ديفيد، فى العام الثانى والعشرين من حكمه، تزوَّج رمسيس الثانى بمقتضاها من ابنة ملك خيتا، وتعاهدا أن يكون المر المائى (نهر العاصى) هو الحد الفاصل بين المملكتين، فلا المصريون يجوز لهم أن يتوسَّعوا شمالًا، ولا الحيثيون يحق لهم أن يتوغَّلوا جنوبًا. ثم جرت مياه التطبيع بين البلدين، فصارا مثل السمن على العسل (لا أدرى لماذا نستخدم هذا التعبير) وهو ما تشهد به رسائل الملكة **نفرتارى** زوج رمسيس الثانى إلى قرينتها الملكة الحيثية، حيث تخاطبها الملكة المصرية بألفاظ مثل: يا أختى الغالية... إلخ.

المهم أن علماء المصريات الأوروبيين، من أمثال كيتشن وكريستيان دى روش، كشفوا عن وثائق حيثية تتغنى بأمجاد النصر الباهر الذى حققه **ملك الحيثيين**

على المصريين فى قادش! والأهم أن رمسيس الثانى ظل يحكم مصر حتى بلغ التسعين من عمره، على اعتبار أنه (المنتصر الوحيد) والشخص الوحيد فى (الصورة).. وهو الأمر الذى تعلَّمه منه معظم الذين جاءوا بعده من الحكام، فقد حرصوا دومًا على أن ينفردوا بالصورة، وأن يتفرَّدوا بالخبر. وكأن لا أحد معهم، ولا أحد حولهم، ولا أحد إلا الملك الوحيد.. لن أفصح بأكثر من ذلك! فتدبَّر هذا الأمر، وتأمَّله قليلًا.

حِطِّين

فى الخمسين سنة الأخيرة، صار اسم صلاح الدين (بطل حطين) مشهورًا على كل لسان، خاصة بعدما قَدَّمَ المخرج يوسف شاهين فيلمه الكبير: الناصر صلاح الدين، فامتزج فى أذهان الناس الخيالُ السينمائى بالخبر التاريخى، وتوحَّدت فى أوهامهم صورتا صلاح الدين الأيوبى والممثل أحمد مظهر (الذى كان فى مبتدأ أمره رجلًا عسكريًّا يعمل فى سلاح الفرسان المصرى).

وقبل الفيلم السينمائى وبعده كثر ذِكْرُ صلاح الدين، وحُشيت عقول الناس بأعمال أدبية وقصائد وكتابات، تنتحبُ على حال العرب، وتنتظر مجىء صلاح الدين الجديد فى صورة **المُخَلِّص**.. وهى صورة ذهنية عَشَّشَتْ فى أذهان أهل هذه المنطقة البائسة من العالم، منذ انتشار الديانة اليهودية التى تقوم أساسًا على انتظار (مُخَلِّصٍ) يُعيد مجد الرب وسلطانه لشعب الرب المختار الذين هم (اليهود) تحديدًا، وما عداهم هم الأُمم.

ولأن الخمسين سنة الأخيرة كانت زمن الحكام العرب (العسكر) فقد كان من المناسب للدعايات الحكومية إذكاء سيرة **صلاح الدين الأيوبى** وإعلاء الأخبار الخاصة بموقعة **حطين** التى انتصر فيها على الصليبيين، واستردَّ منهم القدس ذات الأسماء الكثيرة: إيلياء، أوروساليم، أُوروشليم، بيت المقدس، دار السلام.. مع أنها المدينة التى لم تعرف السلام طيلة تاريخها.

ولأن القدس صارت اليوم بيد اليهود، فالكل يحلم بالبطل صلاح الدين، وبعودة نصر (حطين) على أعداء الدين. وقد كان فى مصلحة الحكام العسكريين العرب المحدثين أن تغرق شعوبهم فى هذا الحلم الذى تستغنى به الجماعة عن الواقع الكئيب، وتهرب إليه من سطوة الزمن الردىء.. وتنتظر، والانتظارُ صبرٌ.. والصبرُ مطلوبٌ ومندوبٌ إليه، ومناسبٌ جدًّا للجالسين على العروش.

والمسألة برمتها ليست سوى مخايلة وخداع للناس، وإلا فكيف انطوى ذكر صلاح الدين وموقعة حطين عدة قرون، ثم طفر فجأة فى الخمسين سنة الأخيرة، المأزومة؟ وكيف يمكن للوقائع التى سنذكرها أن تتوافق فيها صورة (صلاح الدين، بطل حطين) مع صورة المُخَلِّصِ الذى تنتظره الشعوب العربية الحالية؟

وبدايةً، لابد أن نشير إلى أن كثيرًا من المصادر التاريخية العربية قد ذكرت عديدًا من فضائل صلاح الدين الشخصية، ولكنها ذكرت أيضًا ما يلى: كان صلاح الدين فى مبتدأ أمره قائدًا عسكريًّا للحاكم السنى السلطان **نور الدين محمود**، فأرسله سيده إلى مصر لتحصين دمياط، وكانت مصر آنذاك تحت حكم العبيديين (دولة الشيعة الفاطمية) فما كان من صلاح الدين إلا أن صار بعد شهور من مجيئه لمصر فى الوقت ذاته وزيرًا لسلطان مصر الشيعى، وقائدًا من قواد سلطان الشام السنى. وهو وضعٌ عجيب لم يتيسَّر لأى شخص آخر فى التاريخ غيرُ صلاح الدين؛ نظرًا للعداوة التاريخية بين أهل المذهبين! ولطالما ثارت الخلافات فى المرات المعدودة التى اتخذ فيها الخلفاءُ السنيون وزراء من الشيعة، فما بال الجمع بين منصبين كهذين؟

وبدلًا من تحصين دمياط، أخذ صلاح الدين فى تثبيت أقاربه على كراسى الحكم، وبالغ فى منحهم الإقطاعيات. وقد حنق عليه السلطان السنى نور الدين لتقاعسه عن تحصين سواحل مصر، فجهز جيشًا لحرب صلاح الدين، لكنه مات فجأة ليلة خروجه بجيشه من الشام إلى مصر لعزل صلاح الدين! وهنا سنحت الفرصة الذهبية، فسار صلاح الدين بجيشٍ من مصر إلى دمشق، وانتزع الحكم

من ابن السلطان نور الدين، بعدما كان قد استولى على مصر من الفاطميين، ومحا أثرهم من البلاد.. بل أمعن فى محوه.

وأما حطين فقد كانت موقعة واحدة من عشرات المواقع العسكرية التى خاضها (صلاح الدين) وكان تسعون بالمائة منها ضد حكام مسلمين لا صليبيين! وفى المواجهات العسكرية القليلة التى جرت مع الصليبيين، كان منها ما انهزم فيه صلاح الدين، ومنها ما انتصر. وحطين هذه التى انتزع معها صلاح الدين القدس بمعاهدة صلح لم يمتد أثرها إلا عشرين شهراً؛ إذ عاد بعدها الصليبيون وانتزعوا المدينة منه. والشيء الحقيقى الذى تركه (صلاح الدين) بطل (حطين) والمُخَلِّص (المنتظر) هو توزيعه للممالك على أبنائه وأقاربه الذين ظلوا يتقاتلون فيما بينهم لنصف قرن، حتى اهترأت البلاد، وصارت مرتعاً للمماليك الذين حكمونا من بعد الأيوبيين، وحَكَمَنا من بعدهم العثمانيون والعسكريون. وكلهم يحكمون ويتحكَّمون فى الناس بالسيف والعصا وصورة البطل العسكرى المخلص. ولعله من المناسب أن نختم هذا الكلام بهذا النص الذى أورده ابن العماد الحنبلى :

سنة ست وعشرين وستمائة، فيها سلَّم الكامل القدس الشريف لملك الفرنج، بعد أن كاتبه الأنبرور ملكهم فى العام الماضى يقول: أنا عتيقك وتعلم أنى أكبر مغول الفرنج، وأنت كاتبتنى بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامى، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتى، وهذه القدس هى أصل دين النصرانية، وأنتم قد خربتموها، وليس لها دخل طائل، فإن رأيت أن تنعم علىَّ بقبضة البلد ليرتفع رأسى بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها لك. **فَلَان** له وسلَّمه إياها فى هذا العام، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم أتبع فعله هذا بحصار دمشق وأذية الرعية. وجرت بين عسكره وعسكر الناصر وقعات، وقتل جماعة فى غير سبيل الله، وأحرقت الخانات، ودام الحصار أشهراً[1].

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (دار الكتب العلمية، بيروت) 5/ 218.

عيـن جالـوت

وصلت إلينا الأخبارُ المشهورة عن موقعة عين جالوت فى بعض مصادر التاريخ، وفى أكبر عمل دعائى لحاكم فى تاريخ مصر، وهو (السيرة الظاهرية) التى تَغنَّتْ بأمجاد الظاهر بيبرس. ثم طغت شهرة الواقعة، نظرًا لاحتشادها فى المقررات الدراسية والأعمال الدرامية، خاصةً خلال الخمسين سنة الأخيرة.. وأخبار عين جالوت ملخصها أن (الأبطال) قطز وبيبرس وبقية المماليك استطاعوا صَدَّ الزحف المغولى الذى اجتاح العالم فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وأنه لولا وقوف مصر فى وجه هذا الزحف الرهيب، وما قامت به من هزيمة المغول (التتار) فى عين جالوت، لكان هؤلاء الهمج قد دمروا العالم، كله! هذا هو الخبر المشهور عن عين جالوت، وفيما يلى سوف نطبق قاعدة ابن خلدون: ينبغى أن نُعمل العقل فى الأخبار، فنقول والله المستعان:

إن الحقائق الفعلية (المستورة) المتعلِّقة بواقعة عين جالوت (المشهورة) أولُها أن هذه الموقعة الحربية جرت بين المماليك ومؤخِّرة الجيش المغولى وبقاياه بالشام، الذين كان عددهم ثمانية عشر ألف مقاتل، بعدما كان هولاكو قد عاد إلى بلاده بجيشه الذى دخل به بغداد وخرَّبها (كان عدد الجيش مائة وعشرين ألف مقاتل) وقد اضطر هولاكو للعودة، بعدما قطع عليه الإمداداتِ ابنُ عمه الحاكمُ المغولىُّ، زعيمُ القبيلة الذهبية **بركة خان** عقابًا له على دخول بغداد، وتدميرها على هذا النحو المفجع، تلبيةً للسخائم التى كانت تملأ قلب هولاكو تجاه المسلمين، وكانت زوجة هولاكو المسيحية النسطورية **طقزخاتون** تؤجِّج فى قلب زوجها هذه الكراهية، وتحدوه لتدمير بلاد المسلمين، ففعل ما فعله ببغداد من الفظائع المعروفة، بل يقال إن عدد قتلاه من المسلمين وصل فى الأربعين يومًا التى استباح فيها المدينة: مليونًا وثمانمائة ألف مسلم! وكان ذلك ضد رغبة **بركة خان** ومخالفة صريحة لتحذيراته لهولاكو من دخول بغداد. وعاد هولاكو بجيشه إلى بلاده الأولى، ليجد ابن عمه قد أعد له جيشًا، فتقاتل الجيشان المغوليان، وانهزم هولاكو هناك.

ومن الوقائع التاريخية المستورة، أن عين جالوت كانت بداية المواجهات التى انتصر فيها المسلمون على بقايا جيش المغول بالشام. وكانت آخر هذه المعارك، مواجهة عسكرية محدودة، هى موقعة (شقحب) التى جرت سنة 702 هجرية، بعد أربعة وأربعين عامًا على عين جالوت، ومن بعدها اندحر المغول تمامًا لقرابة قرن من الزمان، ثم عادوا لاجتياح الشام تحت قيادة الأمير تيمورلنك (لنك)؛ لنك يعنى الأعرج! ولم يكن المغول همجيين بالقدر الذى صورته الأخبار، وإلا فما تلك الحضارة الكبيرة التى أقاموها فى أواسط آسيا، فيما سوف يسمى لاحقًا بالدولة الإسلامية المغولية! ولم يكن المماليك أبطالًا على النحو الذى صوَّرته مسلسلاتنا التلفزيونية، وإلا فما قتلهم لبعضهم البعض عقب المعركة للاستيلاء على السلطة؟ ولهذا الأمر تفصيل يطول، ملخصه أن اسم قطز ظهر لأول مرة على مسرح الأحداث التاريخية، مرتبطًا بواقعة اغتيال المملوك الحاكم عز الدين أيبك. وارتبط اسم قطز فى الأذهان أيامها بعبارته الشهيرة: الحكم لمن غلب. فلما انتهى المماليك من (مؤخِّرة) جيش المغول فى عين جالوت، استدرج قطزَ جماعةٌ من أصحابه المماليك، من بينهم صديقه اللدود بيبرس، وقتلوه غدرًا. تقول مصادرنا التاريخية إن المماليك اجتمعوا بعد مقتل قطز، برئاسة (سنقر الأشقر) أكبر المماليك سنًا، فقال لهم: مَنْ فعلها؟ فتقدم بيبرس؛ إذ كان أكثرهم رعونةً، وقال: أنا! فقال له سنقر الأشقر: اجلس مكانه، فإنه قال: الحكم لمن غلب.

ثم صار الظاهر بيبرس سلطانًا على مصر، وبطلًا تتغنى به السيرة الظاهرية. ومن بعده صار غيره من المماليك حكامًا وأبطالًا، عملًا بالقاعدة التى صاغها قطز بقوله: الحكم لمن غلب. وكان هو أول من اكتوى بنارها! أما بيبرس فقد استمتع بحكم مصر، واكتسى بصورة البطل التى أضفتها عليه السيرة **الظاهرية** التى خالفت بالطبع الصورة الحقيقية لهذا (المغامر) الذى صار ملكًا لمصر.. ومن أراد معرفة الصورة الفعلية التى كان عليها بيبرس، فليراجع الفصل الذى كتبه **ابن النفيس** الذى كان طبيبًا خاصًا لبيبرس وكبيرًا لأطباء مصر فى زمانه، وهو ما يماثل الآن ما

نسميه: وزير الصحة. ففى كتابه **فاضل بن ناطق** استعرض ابن النفيس (علاء الدين، على بن أبى الحرم القرشى، المتوفى 687 هجرية) الصفاتِ التى يجب أن يكون عليها الحاكم، فوصف بيبرس من دون أن يصرِّح باسمه، مبرِّرًا كل عيوبه الجسمية والنفسية! ومع أننى قضيتُ قرابة العشرين عامًا من عمرى فى دراسة ابن النفيس وتحقيق مؤلفاته المخطوطة، ومن ثم فإننى أحبُّه، وأقدِّر مكانته العلمية تقديرًا كبيرًا؛ إلا أننى موقنٌ بأن هذا (الفصل) التبريرى الفِجَّ، فى فاضل بن ناطق كان سقطةً كبيرةً من ابن النفيس، وعملًا شنيعًا لا يليق بقدره، ولا يتناسب مع عقليته الفذَّة؛ مهما كانت الدواعى أو الظروف التى أدَّت به إلى كتابة هذا الفصل الفِجِّ.. المهم، أن مصر المحروسة ظلت قرونًا تحت حكم (الغالب) من المماليك، حتى جاء العثمانيون وغلبوهم، فصار الحكم لهم لأربعة قرون تالية على المرحلة المملوكية من تاريخنا الباهر.

ولا أظن من جانبى أن أحدًا أضرَّ بهذا البلد المحروس مثل قطز البطل الذى وضع أصول (البلطجة) فى تاريخنا السياسى خلال القرون الثمانية الأخيرة، وكان كما أسلفنا، هو أول من اكتوى بنارها. ولا عبرة عندى، بما يقوله مؤرخونا المعاصرون المساكين من أن هذه كانت طبيعة العصر؛ إذ إن طبيعة كل عصرٍ يضعها المعاصرون الذين يتصارعون كثيرًا، ويعصرون الناس للوصول إلى الحكم.. الحكم لمن غلب! لقد كانت تلك القاعدة هى الهدية الحقيقية التى قَدَّمها (البطل) قطز، لمصر والمصريين.

بَطَــــل

ألقى صاحبى الجريدة جانبًا بعدما انتهى من قراءة مقالى، ونظر نحوى حانقًا بعد لحظة صمت علاه فيها الهمُّ، تنحنح مرتين، ثم قال ما معناه وملخصه: لماذا تريد نـزع البطولة عن أبطالنا ؟ إن رمسيس الثانى وصلاح الدين وقطز هم أبطال هذه الأمة عبر تاريخها الطويل. فلماذا تشوِّش علينا صورتهم؟.. ثم إننا نحتاج (البطل)

فإن لم نجده بيننا انتظرناه، أو اخترعناه، أو التمسنا له ذكرًا فى التاريخ، فلماذا تشوِّه فى أذهاننا صفاء صورة الأبطال ؟

اعتقدتُ أولًا أن صاحبى يسأل، ثم اتضح لى أنه ينوح على نفسه وعلينا، فما كدتُ أجاوبه، حتى قاطعنى قائلًا ما معناه: سيظل أبطالنا أبطالًا مهما قيل فى حقهم، ومهما كانت (الأخبار) التى وردتنا عنهم غير منطقية، فالبطولة ذاتها غير منطقية! البطلُ استثناءٌ بين الناس، نستدفئ بذكره فى ليالى الشتاء، ونحلم بعودته فى أيام القهر، فنحتمل رداءة الزمان الذى نعيشه.

رحتُ أتأمَّل حال صاحبى وهو يحكى ما يحكيه، وقد أخذتنى الشفقة عليه، فالتزمت الصمت. كنتُ فى أثناء كلامه أفكِّر فى الآتى: تُرَى، هل (البطل) مشتقٌّ من البطولة أم من البطلان ؟ وهل يرتبط نضج المجتمعات بقدرتها على التخلى عن وهم (البطل) الذى يأخذ صورة ذهنية تخالف الواقع، مهما كذَّبتها الوقائع ؟ إن المرحلة المسماة عند المشتغلين بعلم النفس (عبادة الأبطال) هى مرحلة مرتبطة بالمراهقة، فهل تعكف المجتمعات غير الناضجة على عبادة أبطالها، مثلما يفعل المراهقون؛ بدلًا من مواجهة واقعها والتعامل معه وتطويره؟ وإن كان لابد لنا من (أبطال) فى التاريخ، فليكونوا الأبطال الحقيقيين، ففى موقعة قادش، كان الأبطال هم طلاب المدرسة العسكرية المصرية فى حلب، الذين أنقذوا رمسيس الثانى من حصار الحيثيين. وفى حطِّين وسيرة صلاح الدين كان البطل الحقيقى هو **السلطان نور الدين** الذى أمضى حياته يدافع عن الأرض والعرض، ومات قبل خروجه على رأس جيشه؛ ليخلع صلاح الدين عقابًا له، لتقاعسه عن تحصين دمياط ومواجهة الصليبيين. وفى واقعة عين جالوت كان البطل هو العلاَّمة **العز بن عبد السلام** الملقب بسلطان العلماء؛ لأنه هو الذى تحدَّى سلطان المماليك الذين كانوا يحكمون مصر، وأصرَّ على بيعهم فى مزادٍ عَلَنىٍّ ليسدِّدوا للأمة الثمن الذى تم شراؤهم به! وقد خَوَّفوه فما خاف، وهدَّدوه فما انهدَّ عنهم، واعترضوا على فتواه القائلة بأنهم عبيدٌ آبقون، فما كان منه إلا أن أصرَّ على فتواه، وكتب لعلماء مصر أن المماليك لا يجوز الصلاة عليهم إذا

ماتوا، ولا يجوز زواجهم وطلاقهم والتعامل الشرعى معهم؛ لأنهم فى حكم: العبد الآبق.. وفى النهاية رضخ المماليك، وانعقد المزاد، وافتدى كل واحد منهم نفسه بمبلغ من المال، فكانت حصيلة ذلك اليوم المشهود هى المبالغ التى تم بها تجهيز الحملة العسكرية التى انتصر فيها المصريون فى عين جالوت على بقايا الجيش المغولى.. أقولُ باختصار: إن كان (البطل) شرطًا لوجودنا، فليس شرطًا أن يكون البطل عسكريًّا.

3 الماضى.. والسامية

قالت لى ابنتى آية التى هى فى الصف الأول الإعدادى أو الصف الثانى: إنها تريد منى أن أشرح لها دروس اللغة العربية، ومن بينها درس الكشف فى المعجم. فشرحته لها، بعد أن أخبرتها بأهمية هذا الموضوع وحيويته فى اللغة العربية، وأكّدت لها أننى (أكشف) دومًا عن الكلمات فى المعجم، وبأننا لا يمكن أن نفهم أصول اللغة التى نستعملها من دون الكشف عن أصولها فى المعاجم، وغير ذلك من النصائح السمجة الكفيلة بإثارة اهتمامها بهذا الدرس اللغوى.

وفى أثناء الشرح، بدا لى أمرٌ كان من قبل مغمورًا وغير ملتفَت إليه. بيانه أنه عند الكشف عن أصل أية كلمة عربية فصيحة، اسمًا كانت أم فعلًا؛ فلابد لنا من رَدِّها أولًا إلى هيئة الفعل الماضى! فالكتابةُ والكتابُ والكاتبُ والمكتبةُ والكتبىُّ والكتاتيبُ والمكتوبُ والمكاتبُ والكتبةُ والكُتَّابُ، كلماتٌ يتم الكشف عنها كلها من خلال أصل واحد لها، هو الجذر (كتب) الذى هو على صيغة الفعل الماضى. وكذلك الأمر فى أية كلمات أخرى، فالعلومُ والعلماءُ والعالمينَ والعلمُ والمتعلِّمُ والعالم والعليمُ والعَلاَّمة والعلاَّم؛ كلها تُرَد إلى جذرها الذى هو على هيئة الفعل الماضى: عَلِمَ.

أنهيتُ الشرح، وانفردتُ لأتأمَّل هذه المسألة التى تمس روح اللغة وجوهرها، أعنى اللغة العربية تحديدًا، وإلا ففى اللغات الأخرى لا توجد هذه الظاهرة التى تؤكد ضمنًا اعتقاد العربى بأن كل شىء كان أصله فى الماضى. فالمصادر أو الجذور كلها فى لغتنا ماضوية. وهكذا الحال مع كل مجموعة (مشتقة) من الألفاظ المتقاربة، إذ كلها تعود إلى (جذر) أساس تُشتق منه، هو صيغة الفعل الماضى.. الماضى يمضى

بوعينا نحو غايةٍ غير معلنٍ عنها، مفادها أن ما يتم الآن وما سوف يتم، إنما أصله كان قد قُدر. وإن استعصت إحدى الكلمات على الرد إلى هذه الصيغة الماضوية، فهذا يعنى أنها ببساطة شديدة: كلمة غير عربية !

إن كل ما هو (عربى) لابد له أن يرتد لفظه، وبالتالى وعينا به إلى صيغة الفعل الماضى، فلا شيء (أصلى) فى الحاضر المضارع، ولا شيء يحدث الآن، أو سوف يحدث مستقبلًا إلا وأصله ومعناه كامنٌ فى جذره الذى يأتى على صيغة فعله الماضى، وإلا فهو غير عربى. وتأكيد الأمر الماضوى لا يقتصر فقط على الروح اللغوى، وإنما يدعمه الروح الدينى الذى يتمثل فيما لا حصر له من أصول الاعتقادات الواردة فى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فمن ذلك الآيات ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**﴾.. ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾.. ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ**﴾ والأحاديث الشريفة: خير القرون قرنى هذا، ثم الذى يليه، فالذى يليه.. جفَّت الأقلام ووضعت الصحف.. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه.. لتتبعن سُنن من كان قبلكم.. إلخ.

وما دام الأمر قد انحسم فى الأزل، وما دام كل شيء قد قُدِّر فى الماضى، وما دام الأصل دومًا على هيئة الفعل الماضى وصيغته اللغوية؛ فكيف يمكن لنا أن ننظر فى الواقع أو نرنو إلى المستقبل؟ أم ترانا بحاجة إلى بناءٍ جديد للغة وفهم جديد للعالم، يتناسب مع الواقع المعاصر الذى نعيش فيه؟ أم نحن بحاجة ماسة إلى بناء الوعى العام، على نحو أكثر واقعية وفاعلية وقدرة على التعامل مع الحاضر، ومع الفعل المضارع، والأفعال التى تأتى على صيغة المستقبل وما سوف يكون؟ وهل يكمن الحل فى حرف السين؟ فبدلًا من كَانَ (سيكون) وبدلًا من علم (سيعلم) وبدلًا من بنى (سيبنى) وبدلًا من فَهِم (سيفهم).. هل سيفهمنى أحد ؟ وهل سيدرك الناسُ الإشارة الكامنة وراء ذلك؟ وهل سيبنى الناس فى بلادى وعيًا جديدًا بالأشياء مستخدمين لغةً ماضوية الجذور؟ الله وحده يعلم، وأنتم لا تعلمون.

سامِيَّة

لم أستطع حفظ الوعد الذى قطعته على نفسى أمام ابنتى آية، حين طلبت منى وهى تضحك ضحكتها العذبة، أن أشرح لها دروس مادة التاريخ استعدادًا لامتحانات نصف العام، شريطةَ ألا أكتب عن ذلك واحدةً من مقالاتى، فى إشارة منها، إلى ما فعلته حين شرحت لها درس الكشف فى المعجم، ثم كتبتُ مقالة: الماضى. وبعدما قطعتُ على نفسى الوعد، الذى قطَّعته إرْبًا فى مقالة تالية، أخذتُ من يدها (كتاب الوزارة) المقرر عليها فى الصف الثانى الإعدادى، ونظرت فى أول سطر منه، فوجدتُ فيه ما نصه: شبه الجزيرة العربية هى الموطن الأول للعرب، ومنها خرجت هجرات منذ القدم.. وينتمى العرب إلى الجنس السامى، نسبة إلى سام بن نوح.

قلت فى نفسى، ها هو أول القصيدة (إيمان) ساذج بهذه المغالطة التى شاعت مؤخرًا، حتى صارت كأنها واحدة من البديهيات. أعنى الاعتقاد بأن السامية جنس أو عرق أو سلالة إنسانية، تنتمى إليها جذور العرب واليهود والسريان، وغيرهم! مع أن حقيقة الأمر ومبدأه، كما يلى:

فى أواخر القرن الثامن عشر، ابتكر عالم اللغويات الألمانى **لودفيج شلوتزر** مصطلحًا جديدًا، يصف به مجموعة اللغات العبرية والعربية والسريانية (الآرامية) التى يمكن ملاحظة اقتراب أصول بعضها من بعض، وأطلق عليها جميعًا، لغرض الدرس اللغوى، وصفَ اللغات السامية، وهو الوصف الذى صار مصطلحًا معروفًا للمشتغلين بفقه اللغة (الفيلولوچيا) يميزون به هذه المجموعة من اللغات (السامية) عن المجموعات الأخرى التى تضم لغات أخرى، مثل الفارسية والتركية واللاتينية. وقد ابتكروا لهذه اللغات غير السامية مصطلحًا آخر هو: الهندو/ أوروبية.. ولم يجد هؤلاء اللغويون وقتها ضررًا فى استخدام مثل هذه المصطلحات الفيلولوچية الملغومة التى سرعان ما تحول معناها عن حدود الدرس اللغوى، فصارت دلالتها عِرْقية (إثنوجرافية) متصلة بمفاهيم السلالات الأنثروبولوچية وأصول الجماعات الإنسانية.

وانتقل معنى السامية وشاع بسرعة فى المائة سنة الأخيرة، حين نجح أبناء عمنا يعقوب عليه السلام؛ أعنى اليهود! فى إقناع العالم بأنهم الساميون، وبأن كل من يدوس لهم على طرف هو عدو للسامية.. حتى لو كان هذا الشخص من العرب الذين لايقلون عنهم ساميةً، وربما يزيدون.

ونظرًا للسطوة الإعلامية لليهود المعاصرين، ونظرًا لأنهم يشتغلون بالعلوم الحديثة، ويتصلون بالعالم بأكثر وأعمق مما نفعل نحن العرب؛ فقد استطاعوا أن يشيعوا هذه الدلالة الأخيرة لكلمة السامية، وأن يُسقطوا مع الأيام دلالتها الفيلولوچية (اللغوية) أو يهمِّشوها لصالح الدلالة السياسية التى تخدم أغراضهم.. والغريب فى الأمر أننا نجعل هذا الوهم حقيقةً بديهيةً يدرسها تلاميذ المدارس فى بلادنا منذ الصف الثانى الإعدادى. ومع الأيام يصير سام وأخوه حام وقريبه بلعام؛ وغيرهم من الشخصيات التوراتية، كأنهم حقيقة تاريخية لابد من الاعتراف بها؛ لأنها صارت بديهية من كثرة ما تردَّدت! مع أن تاريخ الإنسانية لم يعرف (سام) هذا الذى انفردت التوراة بذكره. فكأن توراتهم هى المصدر الوحيد للمعرفة، وكأن اشتهار أىِّ أمر كافٍ لجعله حقيقة.

ويومًا ما سوف تعرف ابنتى آية خطورة خلط الدين والسياسة والتاريخ فى مسألة (السامية) هذه، وتدرك أن تكريس هذا (الوهم) وتأكيده لتلاميذنا فيه خطرٌ عظيم، ونقضٌ للتاريخ الحقيقى، ومناقضةٌ للمنطق.. وأرجو منها يومها أن تغفر لى أننى خالفت وعدى لها، وكتبتُ هذه السطور.

4

حَلُّ الحَبْل

فى كلامنا اليومى إذا وصف أحدهم امرأةً فتيةً بأنها: تحل من حبل المشنقة! فإن ذلك يعنى من دون أىِّ لبس، أنها جميلة جدًّا وشهية جدًّا، بالمعنى الحسِّى للكلمة، فما هو الأصل فى إطلاقنا هذا الوصف على الجميلات ؟

فى الزمن المملوكى من تاريخ مصر، كان الفساد يعم البر والبحر. وكان الحكام (المماليك) منعزلين عن جمهور المصريين، يحكمونهم ولا يختلطون بهم. مع أنهم كانوا أساسًا غرباء، لا يُعرف لهم أصلٌ، ولا يُعرف للواحد منهم فى معظم الأحيان أب! ولذلك نراهم يحملون أسماء مفردة: قطز، بيبرس، قلاوون، قايتباى، شيركوه، صلاح الدين، سنقر.. إلخ. وقد وصفهم المصريون بأنهم (أولاد الناس) لأن معظمهم بلا أب معروف، وهى صفةٌ كانت فى البدء سلبية الدلالة، ثم انقلب معناها إلى الضد، وصرنا نُطلقها على أبناء وبنات الطبقة الراقية. المهم أن زماننا المملوكى الذى يمتدحه بعض معاصرينا جهلًا منهم بطبيعة هذا الزمان، وظنًا بأنه (زمان) كان، ثم اندثر، مع أننى أراه ممتدًا فينا، ولى على ذلك شواهد كثيرة! بل إننى أزعمُ أنه من دون النظر بعمق فى طبيعة المرحلة المملوكية من تاريخنا، لن يمكننا أن نصل إلى فهمٍ عميقٍ لما يدور حولنا اليوم من أحوال السلطة والسلطان، مهما تغيرت المسميات.. ما علينا من ذلك الآن، فما مرادنا هنا إلا تبيان أن فساد الحكم المملوكى أدى إلى ظواهر عديدة، منها ما يعرفه المؤرخون باسم البذل والبرطلة، أو ما نسميه اليوم الرشوة. كما انتشرت فى الزمن المملوكى المحسوبية؛ بمعنى أن كل

شخص قوى يلحق به ضعفاء محسوبون عليه، يزيدون بكثرتهم من قوته، ويفتخر الواحد منهم بأنه من المحسوبين على هذا الحاكم أو ذاك الأمير، أو هو بعبارة عامية (من المحاسيب) الذين ينعمون بالقرب من أصحاب السلطة، مع أن هؤلاء كثيرًا ما كانوا ينقمون على مَن حولهم، بسببٍ أو بدون سبب (وهو ما كان يُعبَّر عنه بقولهم: تغيَّر قلب الحاكم عليه) فتكون الويلات من نصيب هذا المحسوب الذى كان محسوبًا، ثم صار لا حساب له؛ على أساس أن الحاكم أصلًا لا حساب عليه، ولا رَادَّ لرغباته، ولا معيار لتقلُّب قلبه على المحيطين به من محاسيبه.

وفى هذا السياق السياسى والاجتماعى الفاسد كان للوساطة دورٌ كبيرٌ فى تسيير مصالح المغلوبين على أمرهم. فالوسطاء ينقلون أنين الناس إلى مجلس الحاكم، ويتلطفون فى قضاء حوائج الناس (الغلابة) فترتفع بذلك مكانة هؤلاء الوسطاء، المتوسطين بين القاهرين والمقهورين. ولا يغيب عنا هنا أن اسم عاصمتنا المحروسة (كايرو) فى صيغته العربية (القاهرة) مشتقٌّ أصلًا من القهر!

وكان شخص (الواسطة) فى هذا الزمان، وما يزال إلى زماننا هذا، له حدودٌ ودرجات معلومة عند ذوى السلطان، فقد تجوز وساطته فى رد مظلمةٍ بسيطةٍ لحقت ببعض الناس، وهو ما كان يقوم به قديمًا مشايخُ الصوفية. وقد تكون وساطته للحصول على منفعة لنفسه أو لآخرين، وهذا مرهون بكونه من الحاشية المقرَّبة، أو من الأقارب والنسباء والمنسوبين والمحسوبين.

ونظرًا لأن حكام ذاك الزمان كانوا رجالًا، مثلما هو الحال الآن! فقد كان للنساء نصيبٌ كبيرٌ ودورٌ حيوىٌ فى تسيير الأمور والاطلاع على خوافيها ومعرفة مداخلها. والمقصود هنا بالطبع، النساء الجميلات اللواتى كُن يتأنَّقنَ بأنوثتهن، ويتعلَّمن من الرقص والغناء وفنون الغنج ما يضمن لهن مكانةً عند الحاكم ومكانًا فى قصره. ومن هنا، لازلنا نسمى الراقصات الخليعات عوالم، ونسمِّى الواحدة منهن عالمة؛ لأنهن دائمًا أبدًا العالمات ببواطن الأمور.

وهكذا صار للمرأة الجميلة، بحسب درجة جمالها وطغيان أنوثتها؛ حقُّها فى الوساطة وتكريس الفساد العام. فهذه المرأة جميلةٌ بحيث يمكن أن يقبل منها الحاكم الوساطة فى أحد المغضوب عليهم، وهذه امرأة أجمل بحيث يمكن أن تتوسط بجمالها وتبذله، من أجل إخراج مسجون. وهذه فائقة الجمال، حتى إنها تستطيع سلب عقل الحاكم، ورَدَّ حكم القاضى، وإيقاف عمل السياف، وتحلُّ حبل المشنقة من حول عنق المحكوم عليه بالإعدام، ولو فى آخر لحظة تسبق إعدامه.

5 مســـيحـيــات

ما دمنا قد تطرقنا فيما سبق إلى تاريخ الديانة المسيحية، فلنقف فيما يلى عند الآثار العميقة التى تركتها المسيحية فى ثقافتنا المعاصرة، وهى الآثار التى تنكشف لنا عند النظر بإمعان فى مفردات كثيرة نستعملها اليوم، من دون أن ننتبه إلى ما يتوارى خلفها من تراث مسيحى، هو فى واقع الأمر جزءٌ من التراث الذى ننتمى إليه جميعًا، ويمتد فينا على نحوٍ مخايل لا يكشف عن ذاته مع النظرة الأولى.. فلنتأمل معًا الكلمات التالية:

الســـت

هذه الكلمة تُكتب بطريقة، وتنطق بأخرى! فنحن حين نكتبها نبدؤها بألفِ لامِ التعريف، حسبما تجرى (المعرَّفات) فى اللغة العربية. وإذا نطقناها فى استخدامنا اليومى، اختفت اللام وصارت السين مشددة، فكأن الكلمة من أربعة حروف: ألفٌ وسينٌ مشدَّدة وتاءٌ.. وقد يظن البعض أن هذا الأمر لا غرابة فيه، من حيث طبيعة اللغة العربية، حيث لا تظهر اللامُ الشمسية عند النطق.

ولكن عند إمعان النظر سوف يظهر لنا أمرٌ لافتٌ. هو أن هذه الكلمة شائعة الاستخدام التى تُستخدم للإشارة الوقورة إلى إحدى النساء الفضليات مضافًا إليها بعض التعبيرات العربية، كما هو الحال فى قولنا: الست الفاضلة، أو غير العربية، مثلما هو الحال فى: الست هانم.. كما تستخدم الكلمة لوصف النساء المشهورات

بالفضل، مثلما يقول العامة من المصريين للسيدة زينب ذات المقام المشهور بالقاهرة: الست الكريمة.

أما مريم العذراء، فقد جرت الألسنة فى مصر قديمًا وحديثًا بتسميتها: الست مريم. وفى النصوص القبطية التى تم تدوينها خلال القرون الخمسة الأولى من حياة المسيحية، كان يشار للعذراء باسم: الست السيدة مرتمريم. وهو ما نراه مثلًا فى كتاب (تاريخ البطاركة) لساويرس بن المقفع، بحسب النشرة القديمة للكتاب، أو تلك التى صدرت مؤخرًا بتحقيق عبد العزيز جمال الدين الذى أثقل الكتاب بهوامش كان فى غنى عنها!

الست السيدة مرتمريم.. إن كلمة مرتا التى لحقت باسم العذراء، هى كلمة سريانية تعنى السيدة، وهى تلحق هنا باسم العذراء تقديرًا لها. فما معنى تكرارها فى لغتين، واحدةٍ منها هى السُّريانية، والأخرى بالقطع ليست اللغة العربية! فالكلمة استخدمت قبل معرفة المصريين باللغة العربية. ولا عبرة هنا بالاحتجاج بأن كتاب تاريخ البطاركة هو نصٌّ عربى؛ إذ إن الكتاب مدوَّن بعربية عامية/ مصرية، وملىء بتعبيرات أسبق كثيرًا من دخول العربية لمصر، بل أسبق من نشأة اللغة العربية ذاتها! فالعربية لم تظهر كلغةٍ واضحةِ المعالم إلا مع القرون الميلادية الأولى.

إذن، تعبير: الست السيدة مرتمريم لايتضمن تكرار لفظ السيدة مرتين بين لغتين، ومرتين بين الفصيح العربى والعامى. وإنما هو اقترانٌ بين لفظة الست التى تكتب هكذا، ولكنها تنطق من دون اللام: إسِّت، ولفظة مرتا فى اللغة السُّريانية، التى هى الصورة الأحدث من اللغة الآرامية التى كان المسيح وقومه يتحدثون بها. فما معنى: الست، إسِّت؟

من المضحك أننا نعرف اللغة المصرية القديمة وتراثها الهائل، بحسب ما عرفه اليونان؛ إذ إن مصادرنا الأولى عن مصر القديمة، كلها يونانية. وفى لغة اليونان، هناك لاحقة تُضاف إلى الأسماء، وهو ما يعرف فى الإنجليزية بلفظ Suffix بحيث يصير اسم حور حورس، ويصير أوزير أوزوريس. وتصير إيزت إيزيس.

إيزت.. إذا نظرنا إلى منطوق الكلمة وتطابقها مع منطوق: الست (إسِّت) عرفنا أن صفة الآلهة المصرية القديمة، ومنطوق اسمها، صار مع الأيام صفة لكل أُنثى يلفها الناس فى مصر بالقداسة. فالعذراء مريم مقدسةٌ، فهى الست، والقديسة دميانة التى يُنسب إليها دير الراهبات الشهير بدمياط، هى السِّت دميانة. والسيدة زينب التى تجلس على بساط القداسة (التى هى فعلُ الجماعة، وليست شرطًا لازمًا للمقدَّس عند كل الناس) هى عند الصوفية: الست الكريمة.

ولكى نعرف أهمية الإلهة المصرية، وعالمية عبادتها فى الزمن القديم، دعونا ننظر إلى هذا النص البديع، الذى أورده واحدٌ من أهل القرن الثانى الميلادى فى كتاب طريف عنوانه (الحمار الذهبى).. يقول النص على لسان الإلهة المصرية القديمة:

سيِّدةُ كُلِّ العناصر.. عُبِدْتُ بطرقٍ شتى، وأُطْلِقَتْ علىَّ أسماءٌ كثيرة؛ لأنَّ جميعَ أهلِ الأرض يقدِّسوننى. الفريجيون سَمَّوْنى بيسينونتيكا أمِّ الآلهة؟ والأثينيون سَمَّوْنى أرتميس. وعند سكانِ قبرصَ، أنا أفروديت. وفى كريتَ، أنا آناوكينيا. آخرونَ عرفوني باسمِ: بروسيبيرين، وباسمِ: بيلونا، وباسمِ: هيكاتى، وباسمِ: راموميا..

المصريونَ المتفوِّقونَ فى العلمِ القديمِ، وفى عِبادتى بِمَا يليقُ بأُلُوهِيَّتى، سَمَّوْنى باسْمِىَ الحقيقىِّ: إيزيس.

لقد انتقلت عبادة إيزيس من مصر لليونان، حيث بنى اليونانيون معابد للإلهة المصرية القديمة فى بلادهم، وبقيت فى ديار مصر اللفظة الدالة عليها، لتستخدم للدلالة على كل امرأة ذات مكانة دينية عالية، بل مكانة اجتماعية أيضًا؛ ولذا نرى الدول العربية المحيطة بنا، تتحدث عن الأنثى وتتحدَّث إليها؛ بلفظ: امرأة، مَرَة. بينما يعد عيبًا كبيرًا لدى المصريين، أن توصف أنثى بأنها (مَرَة) وإلا لكانت على نحوٍ ما ساقطة.. ساقطة من بساط التقدير والقداسة! أما إذا أردنا الحديث عن امرأة ذاتِ مكانة عندنا، والإشارة إليها باحترام، فهى فى كلامنا صورةٌ للإلهة القديمة: الست.. إيزت.. إسِّت.. إيزيس..

بيــعُ العيــال

فى كلامنا اليومى نقول ساخرين لمن يخلف موعدًا، أو يقصر عن الوفاء بأمرٍ سبق أن التزم به: العبارة الشهيرة: «اللى يعتمد عليك يبيع عياله».. فما قصة بيع العيال هذه، وما هو مصدر هذه المقولة العامية المشهورة التى تتعارض مع تعبيرات مأثورة أخرى، مثل: ماحدش بيموت من الجوع.. العبد فى التفكير والرب فى التدبير.. تبات نار تصبح رماد! وغير ذلك من الأقوال والأمثال الشعبية، التى تعطى الأمل، وتفيد ترقُّب الفرج القريب، وتدعو إلى إلقاء الحمول الثقال على الله؟

وتعبير بيع العيال، وإن كُنَّا نستخدمه عادةً مازحين، إلا أنه يُضرب مثلًا بأمرٍ شاق على النفس، بل هو أشد الأمور قسوة عليها.. فما هو الأصل فى هذا التعبير القاسى؟

كى نجيب عن السؤال الأخير، علينا أن نعود للوراء أربعة عشر قرنًا من الزمان، لنتذكر واقعة تاريخية جرت عند فتح المسلمين لمدينة الإسكندرية التى كانت وقتها أهمَّ مدينةٍ مصرية وعاصمةَ المنطقة الممتدة من أطراف ليبيا إلى حدود الحبشة. وهى واقعةٌ مطويةٌ لا نحبُّ نحن المسلمين أن نذكرها، ولا يحبُّ أحدٌ من إخواننا المسيحيين أن يتذكَّرها! لكنها التفسير (الوحيد) لهذا التعبير الشهير، الذى ظَلَّ جاريًا على الألسنة، من يومها.. فنقول:

كما هو معروف، فإن قرى مصر ومدنها الصغيرة لم تقاوم (بقوة) جيش المسلمين الفاتحين الذين جاءوا بقيادة الفاتح عمرو بن العاص فى لحظةٍ تاريخية حرجة، كانت أرجاء مصر فيها قد أنهكتها الخلافات المذهبية المسيحية/ المسيحية، وأهملتها عاصمة الدولة الرومانية (بيزنطة) الغارقة أصلًا فى همومها. وهكذا دخل المسلمون الديار المصرية بلا مقاومة كبيرة، فكانت أنحاء مصر من الأماكن التى تُوصف فى تراثنا الفقهى بأنها: فُتحت صُلحًا.

وكانت الإسكندرية فقط، هى التى قاومت المسلمين، واستعصت عليهم حتى فُتحت عنوة؛ أى من بعد حرب. ولم يكن غريبًا أن يحدث ذلك، فالإسكندريةُ: عاصمة مصر، ووريثة المجد البطلمى القديم، ومقر الكنيسة المرقسية التى تخضع لها كنائس مصر والحبشة والمدن الخمس الغربية (ليبيا) لم يكن من المنتظر أن تفتح أبوابها مرحِّبةً بالغزاة؛ خاصة أنها لم تكن تخلو من التحصينات الباقية، من زمانها الأول المجيد.

دخل جيشُ المسلمين الإسكندرية بقيادة عمرو بن العاص، سنة إحدى وعشرين للهجرة، بعد مواجهةٍ استسلمت بعدها المدينة للمسلمين، وتعهَّد أهلها بدفع جزية كبيرة، ثم ثار الإسكندرانيون وطردوا المسلمين سنة ثلاث وعشرين؛ فعاود المسلمون فتحها، ثم تلقى الإسكندرانيون مددًا بيزنطيًّا، فطردواً المسلمين مرةً أخرى. وتحصَّنوا بالمدينة فى انتظار المزيد من المدد البيزنطى الذى لم يصل قطُّ، فحمل عليهم المسلمون حملةً شديدة، انتهت بفتح المدينة (عنوةً) للمرة الثالثة، وفرضوا عليها جزيةً كبيرةً، لم يكن أمام الإسكندرانيين إلا قبولها.. يقول مؤرِّخونا القدامى: ثم سارِ عمرو ابن العاص فى جنده حتى فتح برقة، فصالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها مِنْ أبنائهم مَن أحبوا بيعه! (هذه الفقرة من كتاب: فتوح الإسلام، للبلاذرى).

وإذا كانت المدينة التالية على الإسكندرية (باعت العيال) لسداد الجزية، مع أنها فُتحت صلحًا، فكيف كان (بيع العيال) فى الإسكندرية التى استعصت مراتٍ عدة، وفُرضت عليها الجزية الأكبر، وسَبَى عمرو بن العاص ذرية ساكنيها؟ بل كان جند المسلمين يتنازعون فيما بينهم؛ لاحتلال بيوت الإسكندرانيين.. يقول البلاذرى:

تأخر الدعم العسكرى البيزنطى عن نجدة الإسكندرانيين آنذاك، فباعوا لسداد الجزية أبناءهم وعيالهم الذين نجوا من السبى.. وليس مقصودى هنا بالطبع أن أنكأ جُرحًا قديمًا من تلك الجراح التى يمتلئ بها تاريخنا. لكننى أردتُ أن يعرف أهل زماننا دلالة الكلام الذى يردِّدونه كل يوم، وهم غافلون عن معناه وأصله الذى انسرب إلينا مخترقًا مئات السنين.

مفـــروس

فى كلامنا اليومى العامى نقول إذا غاظنا شخصٌ وطال غيظنا منه: إنه يفرس . . وإذا كان المتكلم فردًا قال: فَرَسْنى، أو يقال (فرسنا) إذا كان الفعل يقع على جماعة. فيكون الواقع عليه الفعل: مفروس! أو (مفروسين) للجماعة من الناس . . ولأن الناس فى مصر، أغلبهم (مفروسين) لأن هناك كثيرًا من الدواعى التى (تفرس) فقد رأيت أن نتوقف قليلًا عند أصل هذه الكلمة، وتطورها الدلالى.

لا يبدو أن هناك أصلًا عربيًّا لهذه الكلمة، والراجح أنها انتقلت إلينا من اللغتين العبرية والسريانية، وهما بالطبع لغتان أقدم زمنًا من اللغة العربية التى يتوهم البعض زورًا أنها كانت اللغة التى تكلم بها آدم أبو البشر! المهم أن الكلمة العبرية والآرامية (السريانية القديمة) اشتهرت بسبب الجماعة الدينية اليهودية: الفرِّيسيين (المفرد: فرِّيسى، بتشديد الراء وكسرها) وهم طبقة من رجال الدين اليهودى، اشتهروا بأنهم يتعمقون فى ظاهر الشريعة الموسوية، بشكل يجعلهم غافلين عن المعانى الكامنة وراء التشريع، وهو ما يسمى عند فقهاء المسلمين: مقاصد الشريعة.

وبحسب المشهور من الكتاب المقدس، فى قسمه الثانى المسمى (العهد الجديد) أو الأناجيل، فإن الفريسيين جادلوا المسيح، وأطالوا فى مناكفته، وأنكروه ولم يعترفوا به؛ لأنه جاء بمعجزة هائلة حين شفى رجلًا أعمى بأن وضع على عينيه بعض تراب الأرض! وقد اعترض الفريسيون على السيد المسيح، وقالوا إنه أبرأ الأعمى بفعل شيطانى! لأن المسيح فعل ذلك يوم (السبت) وهو اليوم الذى لا ينبغى القيام خلاله بأى عمل، بحسب المشهور من الشريعة اليهودية. . وهكذا كان الفرِّيسيون (يفرسون) لأنهم كانوا يدققون فى التفاصيل الفرعية، وتغيب عنهم المعانى الكلية.

وللفرِّيسيين حديث طويل فى العقيدة اليهودية، ثم استخدم المسيحيون وصف (فرِّيسى) للإشارة إلى المتحذلق المدقق المتمسك بظاهر النص، مثلما يصف المسلمون مثل هذا الشخص بأنه: حنبلى! بمعنى أنه متشدِّد فى التفاصيل (مع أن

المذهب الحنبلى، هو أكثر المذاهب تساهلًا فى فروع الفقه).. ومن الجهة العبرية والسريانية دخلت الكلمة إلى العربية، ثم انتقلت إلى لغة الكلام اليومى، فى مصر تحديدًا، نظرًا لامتزاج الطبقات الثقافية وتداخلها فى كلام أهل مصر المحروسة، المفروسين حاليًّا.

وقد يُظن أن الكلمة العامية بمشتقاتها الكثيرة جاءت من الكلمة العربية الفصيحة (فرْس) بسكون الراء، وهى تعنى بحسب ما يقول العلاَّمة ابن منظور، دق العنق! ومنها يقال بالعربى الفصيح (مفروس) للمكسور الظهر.. غير أن هذه المعانى ليست أصلًا للمفهوم العامى للكلمة، والأرجح أنها دخلت إلى اللغة العربية الفصيحة من اللغتين العبرية والسريانية (الآرامية) مثلما دخلت إلى لغتنا العامية فى مصر.

الســـائـح

ضمن مادة التعريف بالمخطوطات السبع المختارة من دير سانت كاترين، الصادرة مؤخرًا عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، كتبتُ على عجلٍ عبارة طاش فيها سهمى! ففى معرض التعريف بمخطوطة (سيرة القديس إسطفانوس السائح) ذكرتُ عرضًا أنه يلقَّب بالسائح لكثرة رحلاته ومجاهداته الروحية.. ونظرًا لأن المجموعة المنشورة رقمياً، احتوت على (أقدم) أناجيل عربية، بالإضافة إلى نصوص أخرى نادرة من التراث المسيحى، فقد جرى اهتمام إعلامى واسع بصدور المجموعة، ونُشرت مادة التعريف بها فى عديد من الصحف ومواقع الإنترنت (هى فى واقع الأمر مئات المواقع).

وجاءتنى رسالة إلكترونية مهذبة، تشير إلى تعريفى لهذا اللقب (السائح) مع عبارة: ينبغى يا دكتور أن تعرف ما تقول! فشعرتُ أن هناك خطأ ما.. وكان هناك بالفعل خطأ غير مقصود بالطبع؛ إذ إن (السائح) بحسب المفهوم الكنسى، ووفقًا لتاريخ الرهبنة هو الشخص الذى يمكنه أن يوجد فى مكانين مختلفين فى وقت

واحد! ومن ثم، تداركتُ الأمر، وأصلحتُ المادة التعريفية المرفقة مع الأسطوانات السبع، بعبارة: السائح، وهى درجة عالية من درجات القداسة والرهبانية.

وتأملتُ فى سبب هذا الخطأ، فوجدتنى قد خلطت بين مفاهيم الرهبانية والصوفية الإسلامية.. فالصوفية يسمون الارتحال الدائم فى الأرض للأولياء، باسم (السياحة) أو: السير على التجريد.. أى تجريد الهمة من أى شىء سوى الله! وهذه السياحة الصوفية واحدة من الرياضات الروحية التى أمعن فيها كثير من رجال التصوف، فلم يستقروا فى مكان بعينه؛ ومن هنا، ظننت أن القديس (إسطفانوس السائح) لقَّبوه بذلك لكثرة سياحاته ومجاهداته الروحية، على غرار ما نعرفه من سيرة بعض المتصوفة المسلمين.. فاستحققتُ بذلك لوم اللائم الذى دعانى إلى أن أعرف ما أقول.

ثم تفكَّرتُ فيما يقابل معنى (السائح) عند القديسين المسيحيين من لفظ عند صوفية المسلمين، فوجدتهم يسمونه: البدل.. والأبدال هم طائفة من الأولياء، يمكن للواحد منهم بحسب المفهوم الصوفى للكلمة أن يوجد فى أكثر من مكان بالآن ذاته! وللصوفية كتبٌ كثيرةٌ ورسائلُ حول هؤلاء (الأبدال) منها رسالتان للسيوطى، هما: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، والحكم الجلى فى حكم تطور الولى.. وغير ذلك.

ورحتُ أتأمَّل فى الصلة بين الرهبانية والتصوف، وفى خاطرى القصائد المشهورة للصوفى العارف أبى الحسن الششترى؛ التى منها قوله فى مطلع قصيدة:

تــأدَّبْ ببــابِ الـدَّيْــرِ واخْـلـعْ بــه النَّعْلا
وسَــلِّـم علــى الرهبــان واحططْ بهــم رَحْــلا

وفى خاطرى أيضًا ما أشار إليه شيخ الصوفية الأكبر (ابن عربى) من أن الأولياء الكبار لهم طبقات معلومة بحسب مشاربهم واتجاهاتهم الروحية التى منها: المشرب العيسوى (نسبة إلى عيسى عليه السلام).. ورأيت كثيرًا من وجوه

الصلة بين الرهبنة والصوفية، وبين القديسين المسيحيين والصوفية المسلمين، وبين طريق أولئك وهؤلاء. وهى وجوهٌ كثيرة، وصلاتٌ عدة، يضيق المقام هنا عن استعراضها.

فِصْـــح

الإله فى التوراة كائنٌ عجيبٌ. وهو ليس الله الذى نعرفه، وإنما هو كيانٌ خاص بهم، له عندهم أسماءٌ كثيرة! فهو إيل وهو إلوهيم وهو يهوه وهو الربُّ وهو أهيه الذى أهيه[1]. وغير ذلك من الأسماء، ناهيك عن هذه الصفات العجيبة التى ألصقوها به، وتلك الأفعال الأعجب التى نسبوها إليه. ومنها ذلك الفعل (الإلهى) المدهش الذى يخلِّده اليهود ويحتفلون به كل عام، ويسمونه عيد الفصح!

وبدايةً، فإن كلمة (الفصح) التى تعنى فى لغتنا العربية: الظهور، تعنى فى اللغة العبرية: العبور. ولعله من المفيد لنا اليوم معرفة أن أبناء عمنا من اليهود يحتفلون منذ ألفى سنة بيوم العبور أو عيد العبور! وهو بالطبع، ليس العبور العسكرى الذى حدث سنة 1973 (السادس من أكتوبر، العاشر من رمضان) وإنما هو العبور الإلهى الذى سوف نحكى فيما يلى قصته العجيبة، نقلًا عن كتاب اليهود المقدس (التوراة) وتحديداً سفر الخروج، الفصل الثانى عشر، الآية السابعة وما بعدها؛ حيث يرد الآتى:

كان اليهود يعيشون فى مصر ـ بحسب قولهم ـ مستعبدين! ومع أن التاريخ المصرى القديم بطوله وعرضه، وبعشرات الألوف من النصوص المدوَّنة على البرديات وعلى الجدران ومتون النقوش؛ لم يذكر اليهود إلا مرة وحيدة فى نصٍّ واحد هو لوح مرنبتاح حيث يسرد الملك المصرى القديم أعماله ومنجزاته، فيقول إنه فعل كذا وكذا، وإنه أدَّب عبرو. ويعتقد بعض الباحثين أن (عِبرو) بكسر العين، هم

(1) فى التوراة، عندما ظهر الله لموسى سأله الأخير عن اسمه، كى يُخبر به أتباعه من اليهود التائهين فى سيناء فقال له الرب إن اسمه: أهيه الذى أهيه!

اليهود. هذا هو كل ما ورد عنهم، ولا شيء آخر من أخبارهم فى أى نصٍّ مصرىٍّ آخر! المهم هنا أنهم يقولون فى التوراة إنهم عاشوا فى مصر مستعبدين. ثم إن الرب ـ حسبما يعتقدون ـ أراد أن يُظهر لهم قوته، ويبطش بمصر وأهلها إرضاءً لشعبه المختار.. لكنه (عَزَّ وجَلَّ) خشى أن يبطش باليهود معهم، وهو لايدرى (سبحانه) فأمر الله (تعالى) موسى بأن تذبح الأسرُ اليهودية بعد غروب الشمس (حولى) أى معزاة أو ضأنًا بلغ من عمره عامًا واحدًا (حَوْلًا واحدًا) ويأكلوا لحمه مشويًّا مع رأسه وكوارعه وجوفه! ويأخذوا من دمه، فيضعوا على أبواب بيوتهم علامة دموية حتى يستطيع (الله) أن يميِّز بيوتهم حين يعبر، فلا يبطش بهم فى أثناء بطشه بالمصريين.. سوف أنقل فيما يلى كلامهم بنصه، ولن أعلِّقَ عليه:

وكلَّم الربُّ موسى وهارون فى أرض مصر قائلًا: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور، هو لكم أول شهور السنة. وكَلِّما كلَّ جماعة إسرائيل ليتخذوا فى العاشر من هذا الشهر، كُلُّ واحد حَمَلًا بحسب بيوت الآباء، لكل بيتٍ حَمَلًا.. ويأخذون من دمه ويجعلون على قائمتى الباب وعتبته العليا، على البيوتِ التى يأكلون فيها.. ويأكلونه مشويًّا بنارٍ، مع رأسه وأكارعه وجوفه. ولاتبقوا منه شيئًا إلى الغداة، فإن بقى منه شيء إلى الغداة فأحرقوه بالنار، وهكذا تأكلونه: تكون أحقاؤكم مشدودة ونعالكم فى أرجلكم وعصيكم فى أيديكم. وكُلُوه بعجلةٍ، إنه فصحٌ للرب! وأنا (الله) أجتاز فى أرض مصر فى تلك الليلة، وأقتلُ كُلَّ بكرٍ فى أرض مصر من الناس والبهائم، بجميع آلهة المصريين أصنع أحكامًا[1] أنا الرب، فيكون الدم لكم علامة على البيوت التى أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، ولاتحل بكم ضربةُ هلاك إذا ضربتُ أرض مصر، ويكون هذا اليوم لكم ذكرًا فتعيِّدونه عيدًا للرب، تعيِّدونه مدى أجيالكم فريضةً أبدية، سبعةَ أيامٍ تأكلون فطيرًا.. فلما كان نصف الليل، ضَرَبَ الرَّبُّ كُلَّ بكرٍ فى جميع أرض مصر، من بِكْرِ فرعون الجالس على عرشه، إلى بِكْرِ الأسير الذى فى السجن وجميع أبكار البهائم، فقام فرعونُ ليلًا هو وجميع عبيده وسائر المصريين، وكان صراخٌ عظيم فى مصر، حيث لم يكن بيتٌ

(1) يقصد: يفعل بهم أفعالًا شنيعة!

إلا وفيه ميت.. وصنع بنو إسرائيل كما أمر موسى، فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبٍ وثيابًا وآتى الربُّ الشعب (اليهود) خطوة فى عيون المصريين فأعاروها لهم، وسلبوا المصريين. ثم ارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُوت، بنحو ست مائة ألف ماشٍ من الرجال[1]، خلاف الأطفال، وخرج أيضًا معهم لفيفٌ كبيرٌ وغنمٌ وبقرٌ ومواشٍ وافرةٌ جدًّا (سفر الخروج، الفصل الثانى عشر).

قِـــيَـــامَـــــةٌ

لا يحتفل المسيحيون فى مصر ولا فى غيرها بعيد الفصح اليهودى الذى هو احتفالٌ بذكرى خراب مصر من أجل خاطر شعب الله المختار. غير أن المسيحيين يقيسون على عيد الفصح أعيادًا أخرى عندهم، من أهمها عيد القيامة المجيدة.. وبدايةً، فإن كلمة القيامة فى القاموس المسيحى لا تعنى ما نفهمه نحن المسلمين من الكلمة، كمرادف ليوم البعث أو يوم الحساب الأخير؛ وهو ما نسميه أيضًا يوم القيامة ويوم الدينونة ويوم الحشر والآخرة، وكلها مترادفات تشير إلى ذلك اليوم الأخير المسبوق بالأهوال ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ..**﴾ سورة التكوير، وقد خصَّ القرآن الكريم هذا اليوم بسورة مستقلة (القيامة) تقول آياتها الأولى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ، بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإِنْسَانُ**

---

(1) ناقش ابن خلدون فى مقدمته هذا (الخبر) وأثبت عقليًا أنه من المستحيلات! إذ إنه لايجوز للفرعون أن يخرج لمطاردة هذا العدد من السارقين وخونة الأمانة والسالبين أمتعة المصريين، إلا بضعف عددهم من الجنود.. فكيف تسنَّى للفرعون أن يستحضر من قصره ألف ألف جندى، فى سواد الليل؟ ولا يعقل أن يكون بقصره (مليون) جندى جاهزون للمطاردة، وإلا فكم يكون عدد جنود مصر فى بقية المدن وعلى الحدود البعيدة، بل كم يكون عدد سكان مصر كلهم فى هذا الزمان البعيد؟! إذن، فالعدد مبالغٌ فيه جدًّا (هذه هى خلاصة كلام ابن خلدون فى تلك المسألة).

يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ..﴾ فالكلمة عندنا نحن المسلمين واضحة الدلالة، غير أنها تعنى عند إخواننا المسيحيين شيئًا آخر؛ إذ القيامة عندهم، هى قيامة يسوع (عيسى) من الموت، وارتفاعه إلى السماء. وبالمناسبة، فإن المسلمين والمسيحيين يتفقون فى أن المسيح (صعد) إلى السماء، وإن كانوا يختلفون فى مسألة الصلب، كما هو معروف، والأعياد المسيحية الخاصة بالقيامة وأسبوع الآلام والعشاء الأخير، ترتبط جميعًا بعيد الفصح اليهودى، على النحو الذى سوف توضِّحه القصة التالية المشهورة:

اجتمع السيد المسيح (يسوع، عيسى) مع تلامذته ليلة عيد الفصح اليهودى، وقدَّم لهم خبزًا ونبيذًا أحمر، فأكلوا وشربوا وقال لهم ساعتها إن الخبز هذا هو لحمه، وذاك النبيذ دمه. وبالتالى فإن المسيح صار فى لحمهم ودمهم، ومن هنا، جاء الطقسُ المسيحى المعمول به حتى الآن: المناولة.. وبعد هذا العشاء (الأخير) مضى المسيح، بحسب ما ورد فى الأناجيل، ليضحى بنفسه، ويعانى ويلات أسبوع الآلام، ثم يُصلب، ويموت، ويُدفن، ويقوم من الموت، ويرتفع إلى السماء.. وهذه كلها أيامُ أعيادٍ عند المسيحيين.

النقطة الدقيقة هنا أن المسيحية كانت بالفعل حركة إصلاح للديانة اليهودية، ولكن بالمعنى البعيد للكلمة. أعنى أن المسيحية لم تأتِ لتعديل الشريعة اليهودية، وإبطال بعض طقوسها وعاداتها مثل الختان الذى أعفى يسوع المسيحيين منه، وظللنا نحن المسلمين نقوم به اقتداءً باليهود الذين كانوا بدورهم يقتدون فيه بالمصريين.. بالمناسبة، فإن هذا الموضوع (الختان) يستحق أن نتوقَّف عنده لاحقًا، أما الآن، فمرادنا بيان أن المسيحية كانت حقًّا وصدقًا حركة تصحيح لمسار اليهودية، وأن يسوع المسيح لم يأتِ إلا ليعيد بناء اليهودية، بالمعنى العميق للكلمة. وهو ما يمكن إيضاحه بهدوء على النحو التالى:

اجتهدت الحضاراتُ الإنسانية قبل ظهور الديانة اليهودية بآلاف السنين، فى صياغة مفهوم للألوهية يجعل من الإله الواحد أو الآلهة الكثيرة نموذجًا للحق والخير والجمال والقدرة والخلود.. وغير ذلك من المعانى المطلقة الكلية التى صار

الإله (العالى) صورةً لها فى العقائد القديمة، ثم جاء اليهودُ من مصر أو من بابل أو من أور، وكتبوا توراتهم التى نقول عنها ـ نحن المسلمين ـ إنها محرَّفة؛ فظهر (الله) فيها على نحو لا يمكن قبوله. فهو (تعالى) فى التوراة، يتعب من خلق الدنيا فى ستة أيام، فيرتاح فى اليوم السابع! وهو يحنق على آدم؛ لأنه أكل من شجرة المعرفة، وكأنه كان يود لو ظل آدم جاهلًا، ثم يخشى الله أن يأكل آدم أيضًا من شجرة الخلود! تقول التوراة، فى سفر التكوين: وقال الرب الإله، هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر، والآن لعله يمدُّ يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكلَ، فيحيا إلى الدهر، فأخرجه الربُّ الإلهُ من جنة عدن ليحرث الأرض التى أُخذ منها، فطَرَدَ آدم وأَقَامَ شرقى جنة عدن الكروبيين[1]، وبريقَ سيفٍ متقلّبٍ لحراسة طريق شجرة الحياة..

وهذه الآية موجودة بنصها هذا غير المفهوم، في جميع ترجمات الكتاب المقدس! ومن غير المفهوم أن يقول الله: صار كواحد منا. وقريبٌ من ذلك، فى صعوبة الفهم والقبول ما قاله الله لقايين (قابيل) حين قتلَ أخاه إنه سيجعل له علامة، فمن يقتله سوف يقتل الله منه سبعة أشخاص.. وبالطبع، لا يستقيم هذا الكلام ولا ينطبق على شخص قايين الذى يُفترض فيه أنه الجيل الأول من ذرية آدم. فمن هؤلاء الذين يحميه (الله) منهم بهذه العلامة؟ وكيف سيقتل (الله) منهم سبعة لو قتلوا قاتل أخيه؟

والله فى التوراة يحمى القتلة والمغتالين من دون سببٍ مقنع. فمثلما حمى قابيل، قاتل أخيه؛ حمى لامك بأن جعل له علامة مثل تلك التى كانت لقابيل! غير أن (علامة قايين) الذى قتل أخاه كانت تحذيرًا بأن الذى سيقتله سوف يقتل الله منه سبعة، أما (علامة لامك) الذى قتل اثنين، فهى بحسب ما تقول التوراة: لقايين أن ينتقم سبعة أضعاف، وأما لامك فسبعةً وسبعين. (سفر التكوين 4/ 24). وجدير بالذكر هنا، والذكرى تنفع المؤمنين، أن العملية العسكرية التى شنَّتها دولة إسرائيل على جنوب لبنان وشماله، انتقامًا لضرب حزب الله أطراف إسرائيل الشمالية بالصواريخ، كان اسمها: علامة قايين.. وقُتل تحت القصف الإسرائيلى من اللبنانيين أكثر من

(1) الكروبيون جماعةٌ من الملائكة، وهم عند المسلمين: حملة العرش.

سبعة أضعافِ الذين قتلتهم صواريخ حزب الله من اليهود. فليحفظ الله، سبحانه وتعالى، لبنانَ من عملية إسرائيلية أخرى، يكون اسمها: علامة لامك.

والله (اليهودى) يأمر موسى النبى بالتجسُّس على العرب؛ لأنه سوف يعطى أرضهم لليهود! فتقول التوراة، فى سفر العدد: وكلَّم الرب موسى فقال: تُرسِل رجالًا يتحسَّسون أرض كنعان التى أعطيتها لبنى إسرائيل.. (العدد 13 / 2) وإلههم التوراتى يصارع النبى يعقوب، فيغلبه يعقوب، وينتزع منه اسمه المقدس: إسرائيل. وهو (تعالى) يتهوَّر، فينقم على الإنسان، وينتقم منه بإغراق الأرض أيام النبى نوح، ثم ينسى الله نوحًا ومَن معه، ويتذكره بعد حين، ويندم على ما فعله من إغراق الأرض! تقول الآيات التوراتية: ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض، وبقى نوح ومن معه فى التابوت (السفينة) فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يومًا. وذكر الله نوحًا وجميع الوحوش والبهائم التى معه فى التابوت، فأرسل الله ريحًا على الأرض فتناقصت المياه.. وقال الرب فى نفسه: لا أعيد لعن الأرض بسبب الإنسان، ولا أعود أهلك كل حىٍّ كما صنعت.. (انتهت الآيات التوراتية الواردة، بِنَصِّها).

وتدل هذه الحكايات ـ وغيرها الكثير ـ على أن اليهودية جعلت الله مندمجًا فى الأرض، منهمكًا مع البشر، مغالبًا لهم ومغلوبًا أحيانًا. ولم يكن من المقبول أن يظل الحال على هذا المنوال، لما ينطوى عليه الأمر من انهيارٍ لفكرة الألوهية ذاتها التى قامت أساسًا على قاعدة التعالى والمفارقة المطلقة مع الإنسان. ومن هنا جاءت المسيحية لتعيد الإله ثانية إلى السماء، بفعل القيامة المجيدة التى ارتفع معها المسيح من الأرض، وقام من الموت.. ومن هنا، فإننى أتفهَّم ما تؤكِّده العقيدة المسيحية الأرثوذكسية من أن المسيح هو الإله الحى.. الإله الحى الذى عاد إلى السماء؛ لأن السماء مكان الإله.

* * *

وبعد.. فلنكتفِ بهذا القدر من الكلمات المسيحيات، واليهوديات، ولنعرج بالكلمات التاليات إلى آفاقٍ أكثر طرافةً ولطفًا، بعيدًا عن المعتقدات الدينية (السماوية) ولو إلى حين.. أعنى إلى حين أن نهدأ قليلًا، ثم نعاود النظر فى مسألة النبوة والأنبياء.

6 قَهْوَة

تخفى كلمة قهوة بين طيَّات حروفها تاريخًا طويلًا من التطوُّر الدلالى الذى اكتسبت معه (القهوة) كثيرًا من المعانى. ولابد أولًا من الإشارة إلى أنها كلمةٌ عربيةٌ فصيحة، لكنها ذات دلالة قديمة تختلف تمامًا عن دلالتها التى نفهمها اليوم. ففى كلامنا المعاصر الفصيح والعامى تعنى القهوة أمرين: المشروب التقليدى المصنوع من البن، والمكان الشعبى الذى يجلس فيه الناس قتلًا للوقت. وكلا المعنيين على صلة بالآخر، فقد سميت (المقهى) عند العوام باسم القهوة، لأن قهوة البُن، كانت هى المشروب الأكثر تداولًا فى المقاهى، فلما كثرت المشروبات ذات الطابع الأوروبى: الكابتشينو، نيس كافيه، موكًّا.. إلخ ؛ صار المكان الذى يقدِّمها يسمى كافتيريا، ثم صاروا اليوم يطلقون عليه كلمة: كافيه.. وهى تسميات مشتقة أيضًا من النطق الأوربى لقهوة البن! أما المعنى الأصلى للكلمة، أعنى المعنى الذى ظل قرونًا طوالًا يستخدم فى اللغة العربية، حتى تحوَّل حاله الدلالى فى المائة سنة الأخيرة، فهو يعنى شيئًا آخر.. ولمعرفتى معناه القديم قصة:

كنتُ فى رسالتى للماجستير، أقوم بتحقيق قصيدة صوفية طويلة لعبد الكريم الجيلى، عنوانها: النادرات العينية فى البادرات الغيبية؛ لأُلحقها بالجزء البحثى من الرسالة، انطلاقًا من قناعتى بأن الشعر هو المجالُ الأوسع للتعبير الصوفى، والصورةُ الأنسب التى عَبَّر بها الصوفية عن أفكارهم.. المهم أننى جمعتُ المخطوطات الكثيرة للقصيدة، فوجدتُ أصولها المخطوطة كلها تبدأ بأبيات يتحدث فيها الجيلى عن حالة العاشق الإلهى، فيقول:

فُـــــؤَادٌ بــــــه شَـــــمْسُ المحــبَّــةِ طَــالِــعُ
فَلَــيْسَ لنَــجْـــمِ العَــذْلِ فـــيـــه مَـــــوَاقِعُ

صَحَــا النَّــاسُ من سُــكْرِ الغــرام ومــا صَحَا
وأَفْــرَقَ كُــلٌّ وَهْـــوَ فــى الحـــانِ جَامِـــعُ

حُمَيَّـا هَـــــوَاهُ عَـــيْـــنُ قَـــهْـــوَةِ غـــيـــرِه
مُـــــدَامًــا دَوامــا تَقْتَنِيـــهَـا الأَضَـــالِـعُ

هَــــــوًى وصَـــبَـــابَاتٍ ونَـــــارُ مَـــحَــبَّـــةٍ
وتُـــرْبَـــةُ صَــبْرٍ قَــدْ سَــقَــتْــهَا المــدامِعُ[1]

كان أول ما بدر إلى ذهنى من معنى كلمة قهوة الواردة بين هذه الأبيات، أنها مشروب البن المشهور. وأكَّد عندى هذا المعنى، أن عبد الكريم الجيلى كان صوفيًّا يعيش باليمن. والصوفية هم الذين اكتشفوا مشروب البن، واستعملوه على نطاق واسع؛ لأنه يساعدهم على السهر، وبالتالى على قضاء الليلات فى العبادات والرياضات الروحية. وقد كان اكتشاف البن وبدء انتشاره فى بلاد اليمن التى عاش فيها الجيلى فترة طويلة. وقد اشتهر أهل التصوف هناك آنذاك بحبهم لشرب (القهـوة). ويقال إن الصوفـى اليمنـى المعروف أبا بكر العيدروس هو المكتشف الأول لها! وقد اشتهر من مشايخ الصوفية جماعةٌ، كانوا مغرمين بالقهوة غرامًا شديدًا، مثل الشيخ عبد الهادى السودى اليمنى الذى يقول فيه الشاعر:

قَــــــهْـــــوَةُ البُـــنِّ جُـــلُّ مَقْــصُـــودِى
فـــــــــى الخَـــفَــــــا والعَـــــلَـــنْ

(1) القصيدة تقع فى 540 بيتًا، وقد نشرتها محقَّقةً مع مقتطفات طويلة من شرح الشيخ عبد الغنى النابلسى عليها، وهو الشرح الذى عنوانه: البادرات الغيبية فى شرح العينية الجيلية.

هَـــــامَ بهـــــا إِمَـــامُنَا السُّـــــــودِى
قُـــــطْــــــبُ أَهْــــلِ اليَــمَــــــنْ[1]

غير أننى استغربتُ من بقية البيت الشعرى الذى ورد فى قصيدة النادرات للجيلي، لما رأيته يضيف إلى كلمة (القهوة) قوله: مُداماً دوماً تقتنيها الأضالع.. فالمدامُ فى اللغة هى الخمر! ومن ثم، كان يتوجَّب علىَّ الرجوع إلى الأصل اللغوى لكلمة قهوة، حتى أفهم الصلة بينها وبين المدام؛ فوجدت ابن منظور يقول فى لسان العرب: القهوة هى الخمر، وسُميت بذلك لأنها تُقهى شاربها عن الطعام، أى تذهب بشهوته.

وانتبهتُ مع كلام ابن منظور لأمرٍ بالغ العبثية! وهو أن الفعل (قهـا) يقال فى اللغة العربية لمن ذهبت شهوة الطعام من عنده. مع أننا بسبب جهلنا باللغة التى نتكلمها، أطلقنا اسم (قها) على أكبر شركة غذائية فى مصـر! من دون أن نلتفت إلى أن بلـدة (قها) التى أُقيمت فيها مصانع شركة الأطعمة المصرية وأخذت منها اسمـها، تعنى ما نقصده فى كلامنا العامى بقولنا: انسدت نفسه عن الأكل.

وتقابلنا كلمة (قهوة) بمعنى الخمر فيما لا حصر له من نصوص عربية قديمة، شعرية ونثرية. بل كانت القهوة بمعناها هذا عنواناً لكثير من المؤلفات العربية القديمة (أغلبها لم تزل مخطوطة) التى استعار أصحابها المفهوم الرمزى لكلمة القهوة بمعنى الخمر، كما هو الحال فى عناوين هذه الكتب :

قهوة الإنشاء، لابن حجة الحموى.

القهوة المدارة فى تقسيم الاستعارة، للقنائى.

---

(1) بخصوص عبد الهادى السودى يمكن الرجوع إلى الفصل الذى عقدناه عنه فى كتابنا: شعراء الصوفية المجهولون.

القهوة المرتشفة فى شرح الزهرة المقتطفة، للسلامى.

قهوة النديم ونقلدان المقام الكريم، لمؤلف مجهول.

ولما انتشرت قهوة البن من اليمن فى الأزمنة الأخيرة على يد الصوفية، هاج بعض الفقهاء فحرَّموها. وثار خلاف فقهى كبير بين علماء الدين فى حِلِّها وتحريمها، وهو الخلاف الذى ظهر فى كتاب: عمدة الصفوة فى حِل القهوة، للجزيرى.. وكتاب: حكم التتن[1] والقهوة، للعينى.

(1) التتن هو الدخان: المعسل، السجائر، البايب.. إلخ!

7 الزُّوفـــا

نستخدم فى لغتنا العامية كلمة الزوفا للإشارة إلى الشيء كثير المقدار القليل القيمة، فكل ما فيه من الوفرة بأكثر مما فيه من النفع.. فهو بالزوفا. وكما هو معروف، فقد كثرت فى واقعنا المعاصر (الزوفات) فهؤلاء الذين يهللون لأصحاب السلطان، هم اليوم بالزوفا، والذين يوافقون ويماشون ويمسحون الماعون، بالزوفا، والشباب العاطل يتسكع فى (المولات) ويتكدَّس فى المقاهى، بالزوفا. وعلى هذا النحو، نجد أغلب ما يحدث فى بلادنا الآن يحدث بالزوفا.. فما هو الأصل فى هذه الكلمة ؟

قد يبدو للوهلة الأولى أن الكلمة مشتقة من لفظٍ عاميٍّ وفصيحٍ أيضًا، هو الزَّفَّة التى نعنى بها لحظة دخول العروسين حفل الزفاف، وما يرتبط بهذه اللحظة من طبل وزمر نصفه بكلمة زفَّة العامية التى اشتقت أصلًا من الفعل زَفَّ، بمعنى جاء بخبرٍ طيب.. مع أن الزفاف، وإن كان فى ذاته خبرًا طيبًا؛ إلا أنه لا تأتى عادة بعده أىُّ أخبار طيبة؛ والمتزوجون يعرفون جيدًا هذه الحقيقة، التى لا يفطن لها معظم العُزَّاب!

وصحيح أن الأعراس، جمع عُرْس، يجتمع فيها كثيرٌ من الناس، وأكثر ما يكون اجتماعهم فى يوم العرس هو لحظة الزفة، التى يدخل عليهم فيها العروسان محاطين بالمدعوين الفَرِحين بنجاحهم فى تأطير علاقة جنسية بين اثنين بإطار ترضاه الجماعة، وتتقى به شرور نزواتهما بقدر المستطاع، غير أن ذلك فيما أعتقد ليس هو الأصل فى قولنا عن الشيء الكثير ذى الأثر القليل إنه يحدث بالزوفا.. فما هو ثانيةً الأصل فى هذه الكلمة؟

من المدهش أن نجد الإجابة على هذا السؤال فى كتب الصيدلة العربية القديمة، ومنها ما أورده الطبيب العلامة ابن النفيس (المتوفى 687 هجرية = 1288 ميلادية) بكتابه الموسوعى الهائل الشامل فى الصناعة الطبية. وهو الكتاب الذى استعرض فيه النباتات ذات الآثار الدوائية، أو ما كان يعرف فى اللغة الطبية القديمة باسم الأدوية المفردة.. أما الأدوية المركبة، فقد كانوا يسمونها باسمها الفارسى الذى ما يزال مستعملًا حتى اليوم: الأقرباذين. وقد سار ابن النفيس فى كتابه على الترتيب الألفبائى للمفردات الغذائية والدوائية، وخصَّص فى حرف الزاى مقالتين تحت عنوان الزوفا، لنوعين كانا مشهورين من هذا النبات الدوائى، هما الزوفا الرطب، والزوفا اليابس.

وبحسب ما جاء فى الشامل، وفى غيره من كتب الصيدلة والنباتات، فإن الزوفا هى نوعٌ من الحشائش التى تنفرش أغصانها على الأرض، منه نوع جبلىٌّ ونوع بستانى؛ يشبه المرزنجوش وهو النبات الذى يسميه الناس فى بلادنا اليوم، بردأوش!

وعلى ذلك، فنظرًا لصعوبة تقدير كمية حشائش الزوفا وصعوبة وزنها وتحديد (عيار) لها، فقد كان يتم التعامل معها بالجملة، وبغير تقدير دقيق، وبالزوفا.. مثلما هو الحال مع كثير مما يجرى حولنا اليوم.

8 جَدَلٌ بِيزَنطِىٌّ

فى كلامنا اليومى تعبيرٌ شهير، كثيرًا ما يستخدمه المتأنقون والكُتَّابُ والمؤلفون، للإشارة إلى المناقشات الفارغة التى لن تؤدى إلى شىء فى النهاية؛ فيصفونها بأنها: جدل بيزنطى.. وقبل عشرين عامًا سألتُ أحد أساتذتى عن الأصل الذى ظهر منه هذا التعبير الشهير، فعاد الأستاذ بظهره إلى الوراء، وقال منتشيًا بسعة معارفه إن أهل بيزنطة كانوا قديمًا محاصرين بجيشٍ أعدائهم، ثم طال عليهم الحصار، فتشاغلوا ببحث قضية: مَن الأسبق، البيضة أم الدجاجة ؟ وانهمكوا فى النقاش والجدل حول هذه القضية، وامتد خلافهم حولها حتى صار عراكًا. وظلوا على هذا الحال، حتى جاء اليوم الذى دخل أعداؤهم عليهم المدينة، وهم منهمكون فى ذلك الجدل البيزنطى !

وبقيتُ أعوامًا طوالًا أعتقد أن هذه القصة الوهمية هى الأصل فى وصفنا للجدل الذى لا طائل تحته بأنه بيزنطى ثقةً منى فيما قاله هذا الأستاذ، سامحه الله، ولكننى بعد مدةٍ طويلة عرفتُ أن حقيقة الأمر، بيانها الآتى:

أما بيزنطة، فهى فى الأصل العاصمة الرومانية التى أنشأها الإمبراطور قسطنطين لتكون مقرًّا لحكمه، بدلًا من روما، فعرفت المدينة أولًا بالقسطنطينية، نسبة إلى مؤسِّسها، ثم صارت فى الزمن المسيحى من أكبر المراكز المسيحية، وبُنيت بها أكبر كنيسة فى العالم القديم (آيا صوفيا) وتغير اسم المدينة إلى بيزنطة. وقد اشتهر هذا الاسم الأخير، ونُسب إليها عصرٌ كامل من العصور الأوروبية، هو العصر البيزنطى الذى شهد استقرار المسيحية فى بلدان أوروبا ونواحيها المختلفة،

وتراجعت فيه مكانة روما، وتدهورت مكانة الإسكندرية؛ فكانت القسطنطينية أو بيزنطة هى مدينة العالم الكبرى. وبعد قرون طوال جاء العثمانيون وعبروا بجيوشهم مضيق البوسفور، وسيطروا على المدينة، وحوَّلوا كنيستها الكبرى مسجدًا، وجعلوا اسم المدينة (إسلامبول) و(إستانبول) وعُرفت أيضًا بالآستانة، ثم صار اسمها اليوم اسطنبول.

نحن إذن بصدد الكلام عن مدينة واحدة تحمل أسماءً كثيرة، من شأنها أن تُربك غير المنتبه: القسطنطينية، بيزنطة، إسلام بول، آستانة، إستانبول، اسطنبول! وهى اليوم أكبر المدن التركية، ونقطة التقاء قارتى آسيا وأوروبا. وأيضًا نقطة اختلاف المسلمين والمسيحيين، الذين لم ينسوا أن أكبر كنائس العالم القديم صارت هناك مسجدًا لقرون طوال، مع أن القائد التركى الشهير مصطفى كمال أتاتورك الذى حكم تركيا فى بداية العشرينيات من القرن العشرين، بعد الانقلاب العلمانى الكبير الذى أطاح خلاله بالدولة العثمانية ذات الطابع الدينى؛ كان قد منع الصلاة فى مسجد آياصوفيا، وجعل المبنى متحفًا للسائحين.

أما الجدل المنسوب إلى بيزنطة، فإن جذوره ترجع إلى ما قبل وجود المدينة بقرنين من الزمان. وقد بدأت هذه الجذور فى مناطق بعيدة عنها هى تحديدًا مصر وفلسطين. ففى هذه النواحى، ظهرت منذ القرن الثانى الميلادى أناجيلُ كثيرة، تتحدث بأشكال مختلفة عن مخلِّصٍ جاء من السماء فى أُورُوشَليم المدينة المقدسة عند اليهود. وقد اتخذ هذا المخلص (الماشيح، المسيح، الماسايا، يسوع، عيسى) صورًا كثيرة فى تلك الأناجيل، ما بين الإنسان الذى يصل بفكره إلى الحقائق (الغنوصى) والإنسان الموفد إلى الأرض برسالة من السماء (النبى) والإنسان الإله الذى تجتمع فيه البشرية والألوهية.

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، ظهرت فى شمال الشام خاصةً مدينة أنطاكية أفكارٌ شهيرة صاغها بولس السميساطى، ملخَّصها أن يسوع نبىٌّ من عند الله. وكانت الملكة العربية زنوبيا ملكة تدمر ترعى هذه الفكرة وتحمى صاحبها.

ولما أطاح الرومان بالملكة أطاح رجال الكنيسة بالسميساطى (يُكتب اسمه بالعربية: الشميشاطى) حتى جاء الراهب السكندرى الليبى الأصل آريوس وأذاع هذه الأفكار ثانيةً، فأثار ضده كنيسةَ الإسكندرية وكثيرًا من الكنائس الأخرى. وشكاه الأساقفة إلى الإمبراطور قسطنطين الذى كان يحرص على إرضاء الكنائس الكبرى، فدعا الإمبراطور كُلًّا من الراهب آريوس وأسقف الإسكندرية آنذاك إسكندر إلى التزام الهدوء وعدم إثارة هذه (الموضوعات) التى وصفها الإمبراطور فى رسالته إليهما بالسُّخف والسوقية، غير أن دعوة الإمبراطور لم تجد صدى، واستمر الخلاف حول طبيعة المسيح.. هل هى طبيعةٌ بشريةٌ، كما يقول آريوس؟ أم هى طبيعة إلهية، كما تقول كنيسة الإسكندرية؟ ولسوف نعود للكلام فى هذه النقطة الدقيقة فيما بعد.

وأملاً فى إنهاء هذا الجدل حول طبيعة المسيح، وجَّه الإمبراطور دعوة لرؤساء الكنائس فى العالم للاجتماع فى مدينة المقر الإمبراطورى، غير أن المدينة (القسطنطينية، بيزنطة) لم يكن بناؤها قد اكتمل آنذاك، فاجتمع الإمبراطور ورؤساء الكنائس فى بلدة قريبة اسمها نيقية (تُسمى اليوم: أزنيق) وانعقد هناك أول مجمع كنسى عالمى، مسكونى، سنة 325 ميلادية، وانتهى المجمع، بعد وقائع كثيرة يضيق المقام هنا عن ذِكْرِها – إلى إرضاء الإسكندرية وروما. وتم الحكم على آريوس بالنفى إلى شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا) التى كانت آنذاك هى آخر العالم.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، إذ سرعان ما ثار الخلاف ثانية حول طبيعة المسيح، ودلالة كلمات: الطبيعة، الأقنوم، التجسد.. إلخ. فانعقدت مجامع مسكونية كثيرة، جرى فيها (حَرْم) كثيرين من رجال الكنيسة، حتى كان المجمع الذى انشطرت فيه كنائس العالم، وصار لكل جهة مذهبها، وهو مجمع خلقيدونية الذى انعقد سنة 451 ميلادية، بعدما كان الجدل المذهبى قد بلغ منتهاه. وفشل المجمع الذى تلاه (القسطنطينية، بيزنطة 453) فى توحيد الرأى وتصفية الخلافات المذهبية التى ثارت فى أنحاء العالم، انطلاقًا من بيزنطة، مقر الإمبراطور، التى كانت ميدانها الأول ومحل ابتدائها ومنتهاها.. وهكذا انتهى الجدل البيزنطى إلى الفرقة والانقسام والعداء بين الكنائس، وهو ما يذكرنا

بالآية القرآنية التى نزلت بعد انشطار الكنائس بقرنين من الزمان، لتقول للناس ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وأرى من المفيد هنا أن نُلحق هذا التبيان بمقالة كتبتها منذ عامين، ولم تُنشر، تعرِّف بمخطوطةٍ ألفيةٍ، من أقدم النصوص العربيةِ التى وصلتنا من القرن الرابع الهجرى؛ إذ تلقى هذه المخطوطة غير المنشورة أضواء على طبيعة ما كان يجرى فى المجامع المسيحية المقدسة، سواء المسكونية منها أو المكانية. وها هو المقال بنصِّه :

قوانين المجامع الكنسية

فى كل ديانة جانبان، اعتقادىٌّ وتشريعى، فالجانب الاعتقادى يتناول الثيولوچيا أو صورة الإله فى هذه الديانة أو تلك. والجانب التنظيمى يُعنى بضبط العلاقة بين أفراد هذه الديانة فيما بينهم من ناحية، وفيما بينهم وبين غيرهم من البشر من ناحية أخرى.

وباستثناء الدين الإسلامى الذى بدأ مع القرآن مشتملًا على أصول الجانبين الاعتقادى والشرائعى معًا، فإن بقية الديانات بدأت من اعتقادات أولية تحدَّدت مع مَرِّ الزمان شيئًا فشيئًا، ثم تشكَّلت من بعد ذلك شرائعها مع اجتهادات رجال الدين، وطاعة المؤمنين. وهو الأمر الذى تم فى المسيحية خلال القرون الأولى للميلاد، وفقًا لقرارات المجامع الكنسية التى ضبطت مفهوم (الإيمان) المسيحى، فاتفقت على أشياء معينة تجمع بين كل المسيحيين، واختلفت فى أشياء أخرى، فكانت السبب فى اختلاف الكنائس المسيحية والمذاهب النصرانية قديمًا وحديثًا.

والمصادر والمراجع الخاصة بتاريخ المسيحية تقف طويلًا عند هذه المجامع الكنسية التى تسمى فى اصطلاحهم (المسكونية) أى التى جمعت بين رؤساء الكنائس فى الأنحاء المسكونة من العالم القديم. وعادةً ما يربط مؤرِّخو الكنيسة بشكل مباشر بين هذا المجمع أو ذاك ودواعى انعقاده، دون الاهتمام كثيرًا بالقرارات التشريعية

التى اتخذتها المجامع، مع أنها (قرارات) بالغة الأهمية فى صياغة وتطور المفاهيم العامة للمسيحية، وفى بيان (الوحدة) التى كرَّستها بين الكنائس من جهة، ومن جهة أخرى أسباب (الانشقاق) الذى حدث بينها ولايزال مستمرًّا حتى اليوم.. فلنبدأ أولًا ـ على عادة المؤرخين ـ باستعراض المجامع الخمسة الكبرى الأكثر شهرة، ودواعى انعقادها، ثم نعرض لبعض ما تعرضه المخطوطة من قراراتها.

(أ) مجمع نيقية الأول، سنة 325 ميلادية. انعقد هذا المجمع بسبب ما اشتهر من آراء الكاهن السكندرى ذى الأصل الليبى آريوس الذى أنكر ألوهية المسيح، وأكَّد أنه رسول بشرى مخلوق. فدعا الإمبراطور قسطنطين الكبير جميع رؤساء الكنائس للاجتماع لمناقشة هذه (البدعة) وإقرار قانون للإيمان؛ فاجتمعوا فى نيقية، كما ذكرنا سابقًا، وحكموا على آريوس بالكفر، وعلى تعاليمه بالهرطقة والتحريم، وصاغوا قانون الإيمان المسيحى، الذى يؤكِّد أن المسيح هو ابن الله المساوى له فى الألوهية.

(ب) مجمع القسطنطينية الأول، سنة 381 ميلادية. لما انتشرت آراء (مكدونيوس) القائلة إن (روح القدس) هو أحد الملائكة، وليس إلهًا منبثقًا من الله (الآب).. دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير، والذى أعلن المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية سنة 391 ميلادية، إلى انعقاد هذا المجمع الذى حَكَم بِحَرْم مكدونيوس ونَبْذ تعاليمه وتحريمها، وإضافة فقرة إلى قانون الإيمان تؤكد أن روح القدس إلهٌ.

(جـ) مجمع إفسُس الأول، سنة 431 ميلادية. انعقد هذا المجمع بدعوة من الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير، للنظر فى آراء نسطور، أسقف العاصمة الإمبراطورية (القسطنطينية) من سنة 428 إلى 431 ميلادية؛ وهى الآراء القائلة بإنكار ألوهية المسيح ورَفْض الاعتقاد بأن السيدة مريم هى أم الإله، وحكم المجمع بكفر نسطور، وتحريم تعاليمه، وأضاف إلى قانون الإيمان عبارة: نعظمك يا أم النور الحقيقى، ونمجِّدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله.

(د) مجمع أفسُس الثانى، سنة 449 ميلادية. اجتمع فيه الأساقفة بسبب أوطيخا الذى قال بأن الطبيعة الإلهية للمسيح أزالت بشريته، وبالتالى فهو غير مساوٍ لنا جسديًّا! ولم يحكم المجمع بكفره؛ لأن أوطيخا (أوطاخى) عاد عن أقواله وتاب عنها. إلا أن المجمع حكم بكُفْر فلابيانوس، أسقف القسطنطينية وعَزْله من منصبه؛ لأنه قرر أن المسيح كان له طبيعتان ومشيئتان، الأولى إلهية والأخرى إنسانية.

(هـ) مجمع خلقيدونية، سنة 451 ميلادية. وهو آخر المجامع المسكونية التى تتحدث المخطوطة عن قراراتها، وقد انعقد هذا المجمع بدعوة من الإمبراطور مرقيانوس، وزوجه الإمبراطورة بولخيريا؛ لرفض أحكام وقرارات مجمع أفسس الثانى. وانتهى المجتمعون إلى تبرئة فلابيانوس، وإدانة أوطيخا وحَرْمه، بالإضافة إلى عزل البابا ديسقوروس ونفيه؛ لأنه تواطأ مع أوطيخا، ولم يحترم المجمع المقدس وغاب عن جلساته.

وقد أدى هذا المجمع الأخير إلى انشقاقٍ أبدىٍّ بين الكنائس الأرثوذكسية (الشرقية) التى رفضت قراراته والكنائس الأرثوذكسية (الغربية) التى قبلتها. ومن يومها حدث الانفصال المشهور بين كنائس: الإسكندرية، السريان، الأرمن، أثيوبيا، إريتريا، من جهة، ومن جهة أخرى: الكنائس التسع عشرة التى وافقت على قرارات خلقيدونية، ومن بينها كنيسة روما (الفاتيكان) وكنيسة القسطنطينية (آيا صوفيا) مع أنها جميعًا كنائس أُرثوذكسية، ثم انشقَّت عن الأرثوذكسية فيما بعد الكنائسُ الكاثوليكية والبروتستانتية.. تعنى الأرثوذكسية: الإيمان القويم، وكاثوليكى تعنى: عموميًّا أو جامعيًّا أو مسكونيًّا، وتعنى بروتستانتى: المعترض.

وهذه المجامع (المسكونية) الشهيرة التى ذكرناها، اجتمعت بعدها مجامعُ أقل أهمية، وغير مسكونية (مكانية) اختصت بكنائس معينة، مثل مجمع بيث عذارى 485 ميلادية، ومجمع ساليق 486 ميلادية، ومجمع باباى 497 ميلادية.

ومخطوطة (قوانين المجامع الكنيسة) واحدةٌ من أندر المخطوطات العربية وأقدمها، كُتبت سنة 305 هجرية. وهى محفوظة اليوم ضمن مجموعة مخطوطات

المكتبة البريطانية بلندن، وهى المجموعة التى تضم أربعة عشر ألفًا من بدائع المخطوطات العربية. وتشتمل المخطوطة على قرارات المجامع، مع تفسير وضبط لهذه القرارات، بالإضافة إلى عمليات (الحَرْم) لكل مَنْ خالف الاعتقادات المسيحية وقال بآراءٍ لم يرضَ عنها بقية رجال الدين؛ لإرساء النظام الذى أقرته هذه المجامع المسكونية بقراراتها، فصار تراثًا حيًّا للمسيحية وشريعة لأهل هذه الديانة على اختلاف مذاهبهم.. تبدأ المخطوطة بقرارت مجمع أفسس الأول (فى المخطوطة: أفصص الأول) دون أية إشارة إلى مجمع نيقية السابق عليه، فتورد القرارات التى منها على سبيل المثال:

أيما رجل قس أو شماس، عزله أسقفه عن درجته، فلن يحل لغيره من الأساقفة أن يقبله، إلا أن يكون ذلك الذى عزله. فإن هو مات، كان ذلك مباحًا لمن يصير مكانه.. لا يقبلنَّ الأسقفُ أحدًا من الغرباء والشمامسة، من غير أن يكون معهم كتب منشورة (يقصد: رسائل معتمدة) فإن كانت معهم كتب، فليفكِّر فى أمرهم. وإن شُهد عنده بأنهم قوم صدق، فليقبلهم. وإن لم يُشهد عليهم بمثل ذلك، فليعطوا ما يحتاجون إليه، ولا يُخلطوا بأبناء الكنيسة.. أيما رجل من الكهنة وُجد يصوم يوم السبت أو الأحد ما خلا (سبتٌ) واحد، فليُقطع من درجته. أيما رجل كاهن أو مؤمن دخل كنيسة اليهود أو الهراطقة للصلاة فيها، فليُقطع من درجته ويُنفَ (فى المخطوطة: ينفا) من الكنيسة.. أيما رجل أخذ جارية عذراء (فى المخطوطة: عذرى) من غير ملكه فغصبها على نفسها، فليعتزل ولا يحل له أن يتزوج غيرها، بل يتزوج بها، كما أحب، ولو كانت مسكينة. أيما أسقفٌ أو قسٌّ أو شماس قبل أن يصير فى درجته تزوَّج مرتين، فليُقطع من درجته هو ومن عمله.. أيما رجل من الكهنة لم يصم (فى المخطوطة: يصوم) صوم الأربعين والجمعة والأربعاء، فليُقطع من درجته إلا أن يكون مَنَعه من ذلك مرضٌ أو ضعفٌ قاهر (كاهر) فإن كان علمانيًا (فى المخطوطة: علمانى) فليُعتزل. أيما رجل كاهن صام مع اليهود، أو صيَّر العيد معهم، أو قبل ما يكرمون به أعيادهم من الفطير وما أشبهه، فليقطع عن درجته، وإن كان علمانيًا (علمانى) فليُعتزل.. إلخ.

وهكذا تمضى المخطوطة فى سرد القواعد الملزمة لكل مسيحى، ثم تشرحها وتوضِّح الحكمة منها . . يقول المؤلف بصدد القوانين الكثيرة التى تحرِّم على (المؤمنين) التعامل مع اليهود ودخول معابدهم، ما نصه: أولاد النور إن لم يمكنهم الذهاب إلى الكنيسة، من أجل الكفار (يقصد: بسببهم) فليصلّوا فى البيت ويجمعهم الأسقف هناك، ولايدخلوا كنائس الكُفَّار؛ لأن المكان لا يقدِّس الناس، بل الإنسان يقدِّس المكان، فإن كان المكان مكان الكفار فاذهبوا عنه (فى المخطوطة: عنها) فإنها نجسة. وكما أن الكهنة الزكاة يقدِّسون المواضع، كذلك الكفار الأنجاس ينجِّسون المواضع !

وفى موضع آخر من المخطوطة يقول المؤلِّف: رئيس الكهنة يسوع المسيح الحى، ليس يشبهه شىء (فى المخطوطة: شيا) ولا يعادله. وصية بولس، فيمن يدنو من أسرارنا حديثًا: أنا بولس . . آمركم أيها الأساقفة والقسيسون والشمامسة بهذه القوانين. كل مَنْ أحب أن يختلط بنا ويشرك نفسه فى سرِّنا، ينبغى لهم أن يُدنيهم الشماس إلى القسِّ أو إلى الأسقف، فيسائلهم لأىِّ سببٍ أحبوا الدخول فى ملَّتنا، ويكون الشماسُ الذى يُدنيهم يبحث عن أمرهم أيضًا، وينظر إليهم ويسأل عن حُسن تدبيرهم وما هم عليه، عبيدًا وأحرارًا، فإن كان بينهم عبدٌ لرجل مؤمن، فليسأل ذلك المؤمن عنه وعن حُسن تدبيره، فإن شهد عليه بالصلاح فليعمَّد، وإلا فليُنف . . إلخ.

وبشكلٍ عام، فإن قوانين المجامع مستريبةٌ فيمن يقترب من نطاق الإيمان، وقاطعةٌ لكلٍ من يتجرَّأ على ما يخالف الشرائع التى كانت قد بدأت آنذاك تتشكل؛ ولذلك حفلت المخطوطة، مئات المرات، بألفاظٍ مثل: يُقطع من درجته، ينفى، يُعتزل.

وتكشف المخطوطة أمرًا خطيرًا حين تورد قرارات مجامع غير مشهورة، أسبق حتى من مجمع (نيقية) وتفسِّر قوانينها! ففى الورقة العشرين من المخطوطة يرد ما نصه: هذه قوانين الجماعة التى اجتمعت بأنقرة. وهذه الجماعة هى أقدم من جماعة نيقية المقدسة، ولكنه بُدئ بتلك، لسلطانهم وتعظيمهم. القانون الأول فى القسيسين الذين دعوا للأصنام . . إلخ. والغالب على هذه القوانين المبكرة هو التركيز على الاحتياطات المطلوبة قبل التعميد لمن كان سابقًا يعبد الأصنام. والمراحل التى

يجب عليه قطعها لعدة سنوات ، قبل أن يتأهل للدخول فى حظيرة الإيمان المسيحى ، أو ما تسميه المخطوطة: الأسرار .

ويستمر المؤلف بعد ذلك فى تبيان الآداب العامة التى تنبغى على رجال الدين ونُظم الزواج والعقوبات المفروضة على المخالفين ، وفقًا لقرارات هذا المجمع المبكر . ثم يقول: تمت قوانين هذه الجماعة وهى أربعة وعشرين (هكذا فى المخطوط) قانونًا . ثم يضيف بعد ذلك مباشرة: هذه قوانين الجماعة التى اجتمعت بناوقاسياريا ، وهذه القوانين أسبق من قوانين الثلاثمائة وثمانية عشرة . الأسقف يكون (!) أربعة عشر قانونًا . القانون الأول ، فيمن تزوَّج من النساء أو زنا . أيما قسٌ تزوَّج بعدما اقتبل (فى المخطوطة :قبل) درجة الكهنوت ، فليُقطع من درجته؛ وإن هو فَجَرَ بامرأة رجل أو زنا ، فليُقطع ويُنف ويتوب على ذلك توبة نصوح (هكذا فى المخطوطة) ، وأمره مفوَّض إلى الأسقف فى التوبة . القانون الثانى ، فيمن تزوَّج بأختين ، وامرأة تزوَّجت بأخين . أيما امرأة تزوَّجت أخوين ، ورجل تزوج بأختين؛ فلينفيا حتى الممات . . القانون الثالث ، فيمن جمع بين نساء كثير . إن عقوبة من تزوَّج بنسوة كثيرة وجمعهن فى بيته ، هى بَيِّنةٌ معروفة ؛ إلا أن حُسن تدبيرهم وتوبتهم ، مما ينتفعون بها ، لأنه يخفف عنهم فى الوقت . الرابع ، فيمن أراد أن يزنى فلم يفعل وامتنع . أيما رجل رأى امرأة ، فأحب أن يضاجعها ، فلم يفعل ذلك وامتنع ؛ فليعلم أن نعمة الله خلَّصته من الزنا .

وعلى هذا النحو تتوالى القوانين الكنسية الضابطة للنظام الكهنوتى والتشريعى ، بل الضابطة لأدق السلوكيات واجبة الاتباع ، كأن ينصَّ القانون السابع على أنه: لايجوز للقسيس أن يأكل أو يشرب فى عرس مَنْ تزوج على امرأته ، وهى حية . . وينص القانون الرابع عشر ، على أنه: عدد الشمامسة قد ينبغى أن يكون فى القُدَّاس سبعة ، وإن هم كانوا أكثر وكانت المدينة كبيرة ؛ فإن لذلك فريضة معروفة من كتاب الأبوقسس ، وهو حديث!

وهكذا تكشف المخطوطة عن قوانين المجامع المبكرة (منها مجمع: غنجر!) التى صاغت قواعد تفصيلية تتعلق بالمرأة والزواج ، وهى بشكل عام تتقبَّل فكرة

الزواج بامرأة واحدة (لغير الرهبان) وتحرِّم إطلاقًا الزواج بأكثر من امرأة! وتعدُّ مخالفةُ ذلك تطرفًا غير مقبول، حتى لو جاء التطرف فى الإطار ذاته، مثل ما رُفع إلى المجمع الكنسى من أمر أوسكاثيوس. وتعرضه المخطوطة على النحو التالى: إن الجماعة اجتمعت من أجل أوسكاثيوس وبحث أمور الكنيسة، فرُفع إليهم أنه قد أحدث أصحاب أوسكاثيوس أحداثًا كثيرة، هى مخالفة للسُّنَّة، فاضطرها الأمر (يقصد الجماعة) إلى وضع فرائض وحدود تنتفع بها العامة، وتنفى كل ما كان يعمل به مما لا يجوز ولا يحل؛ لأنهم (يقصد أوسكاثيوس وأصحابه) كانوا يقولون إن التزويج حرام، ولن يقدر أحدٌ منهم وهو متزوج أن يعبد الله ويرجوه؛ ففرقوا بين نساء كثيرة وبين أزواجهن، وبين الرجال وبين نسائهم. فلما لم يقدرون أن يصبرون (هكذا فى المخطوطة) عن النكاح، فَجَروا وكسبوا بذلك إثمًا..

ثم تورد المخطوطة كثيرًا من (المخالفات) التى قامت بها هذه الجماعة المتطرفة التى انشقت عن الكنيسة وتفردت بأحكام وأفعال لا تقرها الكنيسة العمومية؛ إذ كانوا لا يجيزون الصلاة فى منزل مَنْ تزوج حلالًا، ولا يأخذون منه القربان.. وغير ذلك من (البدع) مثل عدم التعظيم لمواضع الشهداء، والتهوين منها، والسخرية بمن يقوم بخدمتها إلى آخر هذه الأمور الانشقاقية التى أوجبت إبطالَ مذهبهم وسَنَّ قانون يكذبهم وينفيهم من الكنيسة.

ومما يلفتُ النظر فى المخطوطة كونها باللغة العربية. مع أنها كُتبت وقتما كانت (السريانية) هى لغة التداول فى كنائس الشام.. وعلى المستوى الاصطلاحى نلاحظ خلال قراءة المخطوطة هذا الاتفاق مع التراث الفقهى الإسلامى المعاصر لتاريخ تدوين النص؛ إذ تقابلنا كثيراً مفردات واصطلاحات مثل: السنة، الجماعة، العامة، اتباع الهوى.. وغير ذلك من الألفاظ التى كانت جارية على ألسنة الفقهاء، ومتواترة فى كتبهم.

وبعد قوانين المجامع السابقة، تورد المخطوطة نص القوانين الخاصة بآخر المجامع الكنسية الكبرى، وهو مجمع خلقيدونية الشهير، الذى تؤرِّخ المخطوطة

يوم وسنة انعقاده وعدد قوانينه بالآتى: هى سبعة وعشرين قانونًا (كذا)، فى خمسة وعشرين يومًا مضت من تشرين الأول سنة سبعمائة وستة (كذا) وستين سنة للملك الإكسندر (يقصد الإسكندر) والقانون الأول منها يقرُّ: كل قانون وضعته الآباء قبلنا فى جميع الجماعات. (يقصد المجامع الكنسية السابقة).

وتضيف القوانين التالية الملامح الأخيرة للشرائع والنظم الكنسية التى قُرِّرت كى تلزم جميع المسيحيين فى أنحاء العالم. لكنها لم تلزم الجميع؛ إذ إن الكنائس الشرقية رفضت قرارات خلقيدونية، ثم تميزت كل كنيسة بأمورٍ دقيقة تخصُّها. فتفرَّقت المسيحية إلى شيعٍ وأحزاب ومذاهب، مثلما تفرقت من قبلها اليهودية، وسيتفرق من بعدها أهل الإسلام.. وأهل كل جماعة، فى كل دين سماوى، يعتقدون أنهم وحدهم المهتدون؛ وأن غيرهم يسيرون فى طريق الضلال، ومصيرهم إلى النار.

.. وتنتهى المخطوطة بقول كاتبها: اعلمْ أن الجمال هو العقل، ليس الذى تهيئه الأيادى أو يحله الزمان! فإن نظرت إلى ما ننظر، فاعلم أن السماحة سماحة العقل. تمَّ، والسلام والمجد والعظمة والوقار للآب والابن وروح القدس، من الآن وكل أوان، وإلى دهر الداهرين، آمين. وكتب الحاكى دانيال بن أوسيفى فى شهر نيسان من سنة خمس وثلاثمائة. فكل من قرأ أو سمع، ترحَّم على مَنْ كتب.. وعلى الغلاف الأخير (قراءة) بخط مختلف، نصُّها: قرأ هذا الكتاب الخاطئ الحقير بطرس بن إبراهيم الجسمانى المقدسى، فى سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة، رحم الله من ترحَّم عليه. آمين.

* * *

وخلال قراءاتى فى هذه المخطوطة الفريدة كثيرًا ما تذكَّرت الحديث الشريف: لتتبعن سُنن من كان قبلكم، شبرًا فشبرًا وذراعًا بذراع، حتى إذا دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه! قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: فمن؟

9 سَخْمَط، وبَسْ

يستعمل الناسُ فى قُرانا خاصةً فى صعيد مصر، كلمة سَخْمط (ومشتقاتها) على نحو محدَّد الدلالة. وهى إن كانت دلالة بشعةً مفجعة، إلا أنها جاءت من قصةٍ شيقةٍ تعود أصولها إلى زمنٍ سحيق، كما سنرى بعد قليل.

مازلتُ أذكرُ من أيام الطفولة أن الوافدين لزيارتنا فى الإسكندرية من الصعيد، كنا نتحلَّق حولهم ليرووا لنا أخبار الأهل وما يجرى من وقائع فى تلك (البلاد البعيدة) التى لم أكن قد رأيتها بَعْدُ. وحين كنتُ فى العاشرة من عمرى جاءت امرأةٌ عجوزٌ للزيارة، وراحت كالعادة تحكى وتحكى، وكان ضمن حكاياتها أن خادمًا وصفته بأشنع الصفات، قتلوه هناك. واتسعت الأعينُ وثارت النفوسُ، شغفًا وتوقًا لمعرفة ما جرى. اعتدلتْ العجوز فى جلستها، وقالت ما ملخَّصه أن هذا الرجل احتال على ابنة أحد الفقراء، وصحبها إلى منطقة بعيدة بين الزروع، وسخمطها.

الكلمة الأخيرة قالتها العجوز الحاكية هامسةً، حتى إننى بالكاد تبيَّنتُ لفظها، وبالطبع غاب عنى معناها.. رحتُ بعدها أتساءل ما بين نفسى ونفسى، عن معنى هذا الفعل (السخمطة) الذى استوجب القتل! وبلطفٍ شديد، سألتُ أمى عن معنى الكلمة، وأمى هى الأخرى من أصول صعيدية، فقالت: بس يا ولد! ولم أفهم شيئًا.. بعدها بأيامٍ، وبلطفٍ أشد، اقتربت من أحد أخوالى، وسألته عن معنى (سخمطها) فقال زاعقًا: بس يا ولد.

بالمناسبة، كلمة بس عربية فصيحة، ولسوف أعود للكلام عنها بعد قليل، أما

الآن فلنستكمل قصة كلمة سخمط، التى عرفتُ بعد سنين كثيرة، أن المرأة العجوز كانت تقصد أن الرجل شنيع الصفات اغتصب البنت. وفهمتُ أن السخمطة هى الفعل المرتبط بالعنف الشديد، والإيذاء البدنى البالغ. ومع أن هذه الكلمة قليلة الاستخدام، فإنها كثيرة الدلالة على المعنى الذى ذكرناه.

ومضت سنون طوال، ثم سمعتُ الكلمة مرة أخرى، فى سياق آخر.. ورحتُ أفكر فى الأصل الذى جاءت منه سخمطة، فبدا لى أولًا أنها استخدامٌ عامىٌّ للكلمة الفصيحة (السخائم) وأنها مشتقةٌ منها على نحو خاص. غير أن السخائم التى هى الكراهية المكبوتة والغل الأسود ترتبط بالشعور الجوانى الكظيم، لا بالفعل البدنى المروِّع؛ ومن ثم فهى بعيدة عن السخمطة، وإن اشترك فى الكلمتين حرفان من أقوى الحروف العربية نطقًا: السين والخاء. وظلت الكلمة تخايلنى، وظللتُ أتأمل معناها ومبناها، حتى طفر فى ذهنى فجأة أصلها القديم.. سِخْمِتْ.

فى العقيدة المصرية السابقة على الديانات الثلاث المشهورة، كانوا يعتقدون أن الإله الأكبر (آمون) كان يعيش أول الزمان مع الإنسان فى الأرض. ولأنه يحبُّ البشر، فقد خلق للناس إلهة تساعدهم فى أمور حياتهم، هى البقرة حتحور، التى ظلَّت تُعينهم على حرث الأرض، وتدرُّ لهم لبنها السائغ للشاربين، فينعمون. غير أنَّ الناس كفروا نعمة الإله، وساءت أفعالهم، فاستاء آمون حين رأى الإنسان يرتكب الأخطاء الكثيرة، فأراد أن يعاقب الناس على أفعالهم، فأمر حتحور بتأديبهم، فاتخذت لهذه المهمة صورة اللبؤة (سخمت) وأوسعت البشر قتلًا وترويعًا وسخمطة، وانهمكت فى مهمتها حتى خربت البلاد.. وارتاع آمون من هول أفعالها، وأمرها بالتوقف فلم تستجب، فأحال لها نهر النيل خمرًا بلون الدم، فعبَّت حتى ارتوت، ثم سكرت ونامت، ولما أفاقت، رأت الأهوال التى فعلتها، فعادت إلى صورتها الأولى (حتحور) وتأسَّف آمون فى نفسه، وصعد إلى السماء، وترك الأرض للناس، واتخذ من الشمس المجنَّحة مجلى له، يطل من خلاله على العالم.

وبقيت صورة الإلهة (سخمت) عند المصريين القدماء، إلهة للحرب يرفعون رايتها عند القتال مع الأمم الأخرى، إذا اقتضت الحاجة.. ويوماً من بعد يوم، بل قرناً من بعد قرن، انسربت الكلمة من المصرية القديمة إلى العربية المعاصرة، ومن أسطورة بدء الخلق إلى الاستعمال اليومى العامى، وصارت (التاء) فيها (طاء) لأن الأخيرة أوقع صوتيًّا من الأولى، وأكثر مناسبةً لدلالة الكلمة: سخمط.. اللهم اكفِ البلاد والعباد، شر السخمطة.

بَسّ

تبدو هذه الكلمة فى ظاهرها، وبسبب كثرة استعمالنا لها شديدة العامية.. وهى فى كلامنا اليومى جامدةٌ، لا تُشتق من شىء، ولا يُشتق منها أية كلمات أخرى؛ وهى: وبس. ومع ذلك فالكلمة فصيحة جدًّا، بل عريقة فى فصاحتها. يقول ابن منظور فى كتابه الشهير (لسان العرب) إن كلمة بس أصلها فارسى، فهى من الألفاظ المعربة، ومعناها: حَسْبُ. بمعنى أن تقول لأحدهم: بس، كأنك قلت له: حسبك هذا. ولسوف نعود للمزيد من المعانى اللغوية لهذه الكلمة، بعد سرد الواقعتين التاليتين اللتين يفصل بينهما أعوامٌ طوال:

كنت كما أشرت قبل قليل، أستفهمُ عن معنى كلمة سخمطة، فيقال لى: بس يا ولد!.. ثم كنت فى الحادية عشرة من عمرى، يوم تعديتُ طورى، وأقبلتُ على قراءة أعمال شكسبير! وبالطبع واجهتنى كلماتٌ كثيرة لم أفهم معناها، منها كلمة (عاهرة) التى كنتُ كلما سألت أحدًا من أسرتى عنها، يقول: بس يا ولد! حتى كرهت كلمة (بس) هذه، ولكن لم يكن لى حيلة فى الأمر.

ومضت الأيامُ، وعرفتُ دلالة كلمة (عاهرة) بعد سنين. ولما كان ابنى علاء فى الحادية عشرة من عمره طلب منى شريط كاسيت لفرقة غنائيةٍ من الفتيات، كانت أغنياتها رائجةً فى هذا الوقت. وكان اسم هذه الفرقة الغنائية، سبايسى جيرلز! وأتيتُ إليه بالشريط، ففرح به.

ثم كان يوم العيد، والأسرة مجتمعة وفيها العجائز والشيوخ، وإذا بعلاء يسألني إن كنت أعرف معنى (سبايسى جيرلز) فلم أرد عليه، فقال من فوره: يعنى العاهرات. فقلت بسرعة: بس يا ولد! ثم إننى استدركتُ لأخفِّفُ من رجفته، فقلت له برفق إننا لا يجوز أن نسوق مثل هذه الكلمات غير المهذَّبة، وسط الجماعة! كان ذاك هو (الحل) الذى ارتأيته ساعتها، لتحاشى القهر الذى تعرَّضتُ له قديمًا، وعَرَّضتُ ابنى له بعدها بسنوات طوال. وهو بالطبع حلٌّ ساذجٌ مؤقتٌ، يخرج من المأزق بإقرار التعمية والإخفاء.. لكنها على كل حالٍ واحدةٌ من سمات ثقافتنا المعاصرة، ومن دلائل هشاشتها.

المهم أن كلمة (بس) فى فصيح اللغة، تعنى أيضًا بحسب ما يورده ابن منظور فى كتابه الشهير: الطرد والتنحية! يقال بس الرجلَ يبسه، إذا طرده ونحَّاه. وانبسَّ: تنحى.. وهنا أتذكر حركة المقاومة الشعبية التى تطالب منذ فترة بإبعاد الحكومة الحالية ورئيس الجمهورية عن الحكم، وهى الحركة التى تسمى نفسها (كفاية) وواضح أن أصحابها استلهموا اسمها مما يردِّده الجمهور فى ملاعب كرة القدم، إذا انهزم فريقٌ هزيمةً ثقيلةً، فراحت الجماهيرُ ساخرةً، تدعو الفريق الفائز إلى (الرحمة) والتوقف عن إلحاق مزيد من الأهداف، بهتافهم الساخر: كفاية.

والعجيبُ أن استخدام (الجماهير) التى لا يُفترض فيها أنها مثقفة وواعية باللغة، هو استخدام سليم. فالكفاية تعنى توقُّف الأمر الإيجابى، ولا تحمل أى معنى سلبى، فيقال: وفى هذا القدر كفاية.. أو: هؤلاء أهل كفاية لعمل ما.. أو أن هذا الأمر الشرعى هو: فرض كفاية، بمعنى أن قيام البعض به يغنى بقية الناس عن فعله.. وهكذا.

ومن هنا، فإنه لا يجوز فى صحيح اللغة، أن يكون اسم هذه الحركة المعارضة (كفاية) لأنه ببساطة شديدة، يتضمن مدحًا لمن يريدون هم أن يذمُّوه! كما يتضمن رضاهم عن الفترة السابقة التى يريدون أن يعلنوا سخطهم عليها.. وهنا، لا يصح فى فصيح اللغة وعاميتها، أن يقال: كفاية.. وإنما يجب عليهم استخدام الكلمة الفصيحة، والعامية فى الآن ذاته، الكلمة المعبرة عما ينادون به: بس.

10 بيئـــــة

ربما نضطر قريبًا إلى استقاء معجمنا اللغوى (الحقيقى) مما يجرى على ألسنة الشباب، لا من المبنى المهيب الصامت، الذى يقع على ناصية شارع ضيق فى منطقة الزمالك بالقاهرة، وفوق بابه لافتةٌ تقول إنه: مجمع اللغة العربية.. ذلك لأن ما يجرى على الألسنة من ألفاظ ذات دلالات محددة صار أكثر صدقًا وتعبيرًا عن الأشياء التى نقصدها. ومن ذلك ما يتعلق بكلمة: بيئة.

فى اللغة المنمَّقة التى يستخدمها المتأنقون يُقصد بالبيئة الظروف الطبيعية المحيطة بالناس، وهى الظروف غير الظريفة التى نسعى اليوم (إعلاميًّا) للحفاظ عليها وتحسينها، بينما تزداد (فعليًّا) تدهورًا يومًا من بعد يوم، بل وفَّقنا الله مؤخرًا، وأُعلنت عاصمتنا القاهرة أكثر مدن العالم تلوُّثًا، بعدما كانت الثالثة فى قائمة المدن الأشد تلوُّثًا. هذا عن المتأنِّق والمنمَّق من الكلام عن البيئة، أما فى لغة العامة من الناس، خاصةً الشباب منهم؛ فإن الكلمة لها دلالةٌ أخرى. يقال: هذا الشخص بيئة! أى أنه ينتمى إلى الطبقات الدنيا، وأخلاقه هى أخلاق الرعاع، وهو غير نظيف ولا راقٍ.. إلخ. وقد صارت هذه الدلالة الأخيرة أكثر شيوعًا واستخدامًا من الدلالة المنمقة للكلمة.

وإذا كانت اللغة، كما قال ابن جنى فى كتابه الشهير الخصائص هى: أصواتٌ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. فإن صوت أو لفظ (بيئة) يعبِّر بقوة عن الغرض الذى يقصد إليه الشباب والعامة، لا المعنى الذى يقصد إليه المتأنِّقون الذين أقترح عليهم استخدام كلمة الأصل الإنجليزى (إيكولوچيا) بمنطوقها لإفساح المجال أمام الدلالة العامية للكلمة. وتدعونى لذلك أسباب عملية، سأكتفى بمثالٍ واحد للإشارة إليها، ثم أترك القارئ يفكر فى بقية الأمثلة:

خلال سنوات طوال امتلأت الإسكندرية بعبارة إعلانية تقول: سان ستيفانو مشروع صديق للبيئة. والمقصود بسان استيفانو الفندق والمركز التجارى (المول) القائم على كورنيش الإسكندرية اليوم، مثل سيف مغروس فى قلبها المواجه للبحر. وهو البناء الذى وصفته فى مقال سابق بأنه: وحش الوحوش! فأغضبتُ بذلك رأس المال السعودى الشقيق الذى تعاون مع الجهد المصرى غير الشقيق، فأنجز ذلك البناء الذى تمَّ افتتاحه الرسمى منتصف صيف العام 2007 (افتتحه رئيس الجمهورية) بعد ضجَّة إعلامية هائلة. مع أنه فندقٌ لا يزيد عدد الغرف فيه عن 118 غرفة! نعم ثمانى عشرة ومائة غرفة فقط لا غير، وبقيته شققٌ سكنية، لا تجوز سُكناها إلا للأغنياء الذين لا يسكنون، ومحلاتٌ تجارية للمتسوقين والمترنحين الذين لا يهدءون. ويفكر الذين بنوا هذه القلعة الاستثمارية الهائلة فى إقامة مشروعات أخرى مماثلة، سعياً منهم للقضاء التام على جمال مدينة الإسكندرية.

كيف كان (سان ستيفانو) مشروعًا صديقًا للبيئة؟ إن زيارة واحدة للمكان، سوف تظهر أنه بعد افتتاحه، أحدث الآتى: أزمةً مروريةً تُحدث تلوثًا من عوادم السيارات، ولاسبيل إلى حلها.. قام المبنى باحتلال المساحة الخضراء الوحيدة بقلب الإسكندرية، لصالح أكبر كيان خرسانى على رأس المدينة.. نجح المبنى فى حجب أجمل منظر للبحر، أمام أكبر مساحة عمرانية بالإسكندرية.. احتل المبنى الشاطئ الممتد أمامه، وجعله مقصورًا على نزلاء الفندق.. هذا كله، بالإضافة إلى نجاح القائمين على المشروع فى بناء أكثر مبانى المدينة قبحًا من الناحية المعمارية.

ومادمنا قد عرفنا معنى (صداقة البيئة) وعرفنا بأى معنى يجب أن نستخدم كلمة بيئة على الوجه الصحيح؛ فلنعرف أن صداقات بيئة كثيرة سوف تملأ مدينة الإسكندرية قريباً.. منها هذا المبنى (المول) الذى لا يقل قبحًا عن (وحش الوحوش) وهو يقام اليوم فى قلب أجمل منطقة فى الإسكندرية (المعمورة) ضاربًا عرض الحائط بأى ذوق سليم أو حسٍّ جمالى أو احترام للمكان.. لينضاف مبنى آخر جديد إلى أمثاله من المبانى.. البيئة.

11 بَغْـــدَدَة

فى كلامنا اليومى نَصِفُ ما هو مترفٌ وغنىٌّ وذو دلال بأنه يتبغدد.. والأصل فى هذا الوصف واضحٌ، لا يحتاج إلى تفكيرٍ عميق، فهو مشتق من مدينة بغداد التى قال عنها ياقوت الحموى (المتوفى 626 هجرية = 1228 ميلادية) فى كتابه الموسوعى معجم البلدان إنها: أم الدنيا وسيدة البلاد.. وأفاض فى الكلام عنها، بأكثر مما فعل مع أى مدينة أخرى ذكرها فى كتابه. ولا عجب فى ذلك، ففى زمان ياقوت الحموى لم يكن فى البلاد ما يقارب بغداد فخامة وترفًا، وبغددةً.

كان بناء بغداد سنة 145 هجرية، على يد الخليفة العباسى المنصور. وفى ذاك الزمان كان الخروف الذى نشتريه اليوم بألف وخمسمائة جنيه مصرى فقط لا غير، ثمنه درهم واحدٌ. وكان الدرهم الواحد يشترى آنذاك تسعين رطلًا من لحم البقر، أو ستين رطلًا من لحم الغنم، أو عشرة أرطال من عسل النحل! وقد أنفق المنصور على تأسيس بغداد أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم، وهو ما يعادل اليوم 7.324.500.000 جنيه. واستعان على عمارتها بحشودٍ من المهندسين والصناع المهرة الذين جلبهم من سائر البلاد.

ولخمسة قرونٍ تالية على تأسيسها، ظلت بغداد: سيدة البلاد، وجنة الأرض، ومدينة السلام، وقبلة الإسلام، ودار الخلافة، وحاضرة الدنيا.. وغير ذلك من الصفات التى ألحقها بها كل الذين كتبوا عن بغداد. وقد خصَّها الخطيب البغدادى بكتابه الضخم ذى المجلدات الكثيرة: تاريخ بغداد.. ومن هنا جاءت فى لغتنا اليومية، منذ مئات السنين، صفة البغددة التى نلحقها بكل ما هو جميل وذو دلال.

غير أن هذا الوصف يدل على أننا على مستوى العقل الجمعى: خارج التاريخ. فمنذ ثمانية قرون، وابتداءً من سنة 656 هجرية، لم تعد بغداد متبغددة. ففى هذه السنة المذكورة، اجتاحها جيش هولاكو فأسقطها، وقتل من أهلها فى أربعين يومًا ما لم يُقتل مثله فى حادثة أخرى مرت بالعالم القديم. وقد تفاوتت تقديرات عدد القتلى من البغداديين خلال هذه الأيام الأربعين، وهى مُدة استباحة هولاكو للمدينة، ما بين ثمانمائة ألف شخص، إلى ما يزيد عن المليون. وهو عدد كبير جدًّا بالنسبة لذاك الزمان.. كان عدد سكان روما آنذاك ثلاثين ألفًا.

ومنذ ذاك الوقت البعيد دخلت بغداد جُبَّ الأسى، وتوالت عليها الكوارث، فمن اجتياح تيمورلنك إلى تخريب الصفويين إلى كوارث الاستعمار إلى اضطرابات الصراع السياسى، انتهاءً بما شهدناه مؤخرًا من قيام وسقوط دولة صدام حسين.. ولسوف يستمر حالها الحالى إلى الخمسين سنة القادمة التى لن تخرج فيها بغداد مما تعانيه اليوم.

ومع ذلك، فمازلنا نتغنى بمجد قديم، ونعيش فى صورة ذهنية لمدينة عاشت قبل ثمانية قرون من الزمان زمانًا جميلًا.. وعلى المنوال ذاته، نفعل مع القاهرة التى نسميها المحروسة، مع أن التاريخ القديم والمعاصر دَلَّ على أنها بلا حراسة! ومع القدس التى نسميها مدينة السلام، مع أنها لم تعرف خلال تاريخها الطويل سلامًا ولا حضارة، ومع الإسكندرية التى نصفها دومًا بعروس البحر المتوسط، حتى فى سنوات تدهورها الأخيرة، من بعد قيام ثورة الضباط (الأحرار) الذين كانت لديهم (الحرية) فى فعل ما يريدون.

إن عقلنا الجماعى لا يرى الواقع، وإنما يعيش دومًا فى الصورة الذهنية الماضوية التى لا تعنى فى الواقع الفعلىِّ شيئًا، ولا تغنى عن الحق فى غير الخيال شيئًا.. فتأمَّلْ وتفكَّر وتحسَّر وتأخَّر عن زمانك مع المتأخرين.

12 أرارى

لأزمنة القهر التى مرت بنا امتداداتٌ كثيرة فى لغتنا اليومية، وهى امتداداتٌ ظاهرةٌ وخفية، لا تكاد من كثرتها تقع تحت الحصر؛ إذ بقيت على ألسنتنا من تلك الأزمنة الطويلة كلماتٌ مخبرةٌ عما جرى ودالةٌ على ما كان، وأمثلةٌ شعبيةٌ نبعت ببطء من أرض القهر والحرمان، منها: اربط الحمار مطرح ما صاحبه عاوز.. اللى يتجوِّز أمى، أقول له يا عمى.. اليد اللى ماتقدر تعضها، تبوسها.. وغير ذلك كثيرٌ من الأقوال الشبيهة فى معناها، وفى دعوتها لقبول الاستعباد. ولسنا هنا بصدد تحليل هذه المأثورات والأمثلة وارتباطها بالقهر الذى ساد البلاد فى معظم فترات تاريخنا، حتى إننا يصعب أن نجد زمنًا مصريًّا يمكن وصفه بزمن الحرية. ولأننا نعنى هنا بالكلمات المفردة، لا المفاهيم العامة والأمثلة المأثورة، فسوف نتوقف فيما يلى عند كلمة أراها مهمة.

نقول عادةً (مازحين) لوصف الشخص المتخصِّص فى أمرٍ ما أو العليم بأسرار الأشياء، أو العارف بمجريات الأمور إنه: أرارى. وهذه الكلمة مكتوبة هنا بحسب الطريقة (الصوتية) التى ينطقها بها الناس، أما لو أردناها بحسب ما توجبه طريقة الإملاء الصحيحة، فسوف تكون: قرارى.. بكسر القاف.

والأرارى أو القرارى وصفٌ إيجابى بشكل عام. وإن كان لا يخلو من همز ولمز وحسد لهذا الشخص الموصوف بهذه الصفة. والأصل فى اشتقاق هذه الكلمة، وفى استعمالها على هذا النحو يعود إلى السنوات الغابرة، حيث كان حكامُ المماليك ثم العثمانيون، ومن بعدهم أسرة محمد على باشا (الكبير) يأخذون الفلاحين من

بلداتهم وقراهم لأعمال السخرة أو للخدمة العسكرية الإجبارية فى المناطق النائية مثل السودان . . (كان أهل المأخوذ للجندية، يتقبلون فيه العزاء).

ومن طبيعة الحكم فى مصر أن الحاكم يعتقد أنه يملك الناس مثلما يملك الأرض التى يعيشون عليها. يملكها ويملكهم بالحق الإلهى على اعتبار أنه ابن الإله كما كان الحال فى زمن الفراعنة؛ أو لأنه ظلُّ الإله فى الأرض كما هو حال الحكام الإسلاميين الذين يحظون بدعمٍ هائل من الأصول الدينية التى تمثِّلها الأحاديث الشريفة: الحاكمُ ظلُّ الله فى الأرض . . مَنْ شقَّ عصا الطاعة فاقتلوه . . السمع والطاعة ولو لعبدٍ حبشىٍّ . . ولذلك، فلا غرابة فى أن مصر حكمها فى السابق عبيدٌ من أمثال كافورٍ الإخشيدى، العبد الخصى المشقوق الشفتين! ولذلك أيضًا، لم يكن من الغريب على الحكام أن يقطعوا بينهم الإقطاعيات، وأن يجلبوا الناس لخدمتهم سُخرةً، من دون مقابل.

وكانت أكبر عملية سُخرة فى تاريخنا الحديث، هى عملية حفر قناة السويس التى لقى فيها عشرات الآلاف من المصريين حتفهم. وقد حفلت الآداب الأوروبية الحديثة، بأعمال ومؤلفات تحكى العنت الذى لقيه المصريون فى أعمال حفر القناة . . وكالعادة، كانت السخرة تتم بالتقاط الناس القادرين على العمل من بيوتهم وقراهم ومواطن تجمُّعهم، بل من الطرقات أيضًا . . وكان يستثنى مِن هؤلاء مَن كان منهم خبيرًا بالزراعة وفنون الفلاحة، ليس تقديرًا لهؤلاء الفلاحين الخبراء بالزراعة؛ وإنما خشية أن تتأثر المحاصيل التى ينتجها هؤلاء الفلاحون.

وهكذا كانت السخرة تحصد الرجال، إلا مَنْ كان مسموحًا له بالقرار فى الأرض . . القرار فى الطين، لإنباته لصالح الذين يملكون البلاد والعباد. وكان الواحد من أصحاب الاستثناء يُعرف بين الناس بأنه مرتبطٌ بالأرض، فهو: قارٌّ . . قرَّارٌ . . قرارى . . أرارى!

13 الميرى

لو فاتك الميرى اتمرَّغ فى ترابه.. عبارةٌ مشهورةٌ يردِّدها الناس فى بلادنا، أو بالأحرى ظلوا يردِّدونها زمنًا طويلًا، حتى تضعضع مؤخرًا حال البلاد، وتمنى أغلب الناس الهجرة إلى الخارج، وهذا حديثٌ آخر ذو شجون.. وقد انشغلت منذ سنوات بعيدة بمعرفة ذلك الميرى الذى يُنصح بالتمرغ فى ترابه عند فوته.

اعتقدتُ أولًا أنه القطار الذى يثير الغبار من خلفه إذا تحرك. وإذا فات أحدهم القطار، فإن عليه أن يندم الندم المشار إليه مجازًا بالتمرُّغ فى التراب. غير أن هذا التفسير كان من الصعب قبوله، فالقطار فى بلادنا لم يُعرف أبدًا باسم الميرى، اللهم إلا ذلك القطار الذى ينقل الجنود فى الصحراء، وكان يشار إليه أحيانًا باسم: قطار الميرى.

قلتُ: لعل المقصود هو الجيش، بمعنى أن الذى لا يلتحق بالخدمة العسكرية، بحيث تصير له مهنة تؤمِّنه من الفقر وتُعلى قدره بين الناس؛ فعليه بالندم والتمرُّغ فى تراب الفرصة التى فاتته، كيما يكون شخصًا مرموقًا.

وقد استرحتُ برهةً إلى هذا التفسير الأخير، وظننتُ أن الدلالة العميقة للقول المأثور صارت على نحوٍ ما واضحة.. غير أننى اكتشفت مؤخرًا أن الدلالة أعمق كثيرًا مما ظننته، وأن أصلها كامنٌ على نحو عجيب فى تاريخ قديم لهذا البلد.. وها هى التفاصيل:

فى الزمن المصرى المشار إليه دومًا بزمن الفراعنة (كلمة فرعون تتألف من مقطعين: بر، عو. وهى تعنى حرفيًا: البيت الكبير ؛ فالملك هو الساكن فى البيت الكبير) كانت مصر مطمعًا للأمم المجاورة؛ نظرًا لأنها مزرعة القمح الكبرى فى العالم القديم، ومن هنا حرص الأقوياء على استغلالها؛ فاحتلها الفرس مرتين، ودخلها اليونانيون وحكموها قرونًا من الإسكندرية، ثم انتهى أمرها إلى أن صارت منطقة تابعة لروما، وبيزنطة من بعدها، يجلبون منها القمح إلى عاصمة الإمبراطورية، ليتم توزيعه بعد ذلك على أنحاء الإمبراطورية، بحسب رغبة الأباطرة والحكام.

وكانت عملية نزع القمح من مصر (الجائعة) وإرساله إلى روما أو القسطنطينية، تُعرف قديمًا باسم عملية نقل الميرة. وهى على الأرجح كلمة فارسية قديمة، تعنى القمح. ولكى نتصور أهمية نقل الميرة يجب أن نعرف أنه خلال مئات من السنين، لم تكن لمصر مكانة فى المنطقة، إلا بحسب ما يخرج منها من القمح (الميرة) وأن المصريين كانوا فى وعى حكام العالم الرومانى، ليسوا أكثر من مزارعى قمح.. كانوا يزرعونه، ويحصدونه فيما يسمونه (جرون.. جمع جُرْن) فرعية، ثم يُنقل إلى جُرون مركزية، حتى تأتى المراكب فتأخذه إلى أيدى الأباطرة.

وكان المصرى الذى لا يحصل على قمحٍ يتقوَّت به، من قبل أن تنتقل (الميرة) إلى ما وراء البحر سيقضى عامه جائعًا. ومادامت جرون القمح قد خلت، فلا سبيل أمامه إلا التمرُّغ فى تراب هذه الجرون، لعله يقع على حبات قمح يلتقطها من التراب، على أمل أن تكفيه إلى العام المقبل.. وهى لن تكون كافية بالطبع، ولكن ليس أمامه إلا التمرغ فى التراب الباقى فى موضع تلال القمح التى انتقلت إلى خارج البلاد.

ولأن نقل القمح (الميرة) كان يتم تحت إشراف جنود الحامية الرومانية، اقترن الجيش فى أذهان المصريين بالميرة، وصار الذى يلبس الزى الرسمى للجيش يقال إنه يرتدى الميرى.. وفى الخمسين سنة الأخيرة بعد الثورة المباركة، أضاف الناس فى بلادنا تعبير (الملكى) للإشارة إلى الزِّىِّ المدنى،

أو كل ما يلبسه غير العسكريين. وصار زِىُّ الناس إما (ميرى أو ملكى)، وكأن (الميرى) مشتقٌ من الأمير؛ وهو ما أوحت به قرائن أخرى مثل تسميتنا المستشفى الذى ينشئه أحد الأمراء، بالمستشفى الأميرى، التى تحوَّلت تخفيفًا إلى الميرى؛ مما قد يُظن معه أن الذى يجب أن يتم التمرُّغ فى ترابه هو خدمة الأمراء.. غير أن دلالة (الميرى) أقوى ارتباطًا بالقمح، وبما ذكرناه. ولا يزال الناس فى الشام (سوريا ولبنان) يسمُّون القمح إلى يومنا هذا: الميرى.. وكانت كنيسة الإسكندرية الكبيرة، مقر الكرازة المرقسية فى العصر البيزنطى، المسئولة عن تسهيل انتقال القمح إلى العاصمة الإمبراطورية تُعرف بعدة أسماء: الكنيسة الكبيرة، الكنيسة المرقسية، الكنيسة البطريركية، كنيسة القمحة.

14 الاســـم

انهضْ.. قد نوديت باسمك

لقد بُعثت

فلن تفنى!

ذلك هو النداء الذى يسمعه الميتُ يوم البعث، بحسب العقائد المصرية القديمة، التى قدَّمت للإنسانية منذ فجرها المبكر، فكرة الحساب واليوم الآخر. وهى الفكرة التى لم تظهر فى الديانة اليهودية، ثم بعثتها المسيحية، وأكَّدها الإسلام. وبحسب الديانة المصرية القديمة، فإن الميت سوف يأتى عليه يومٌ، يسمع فيه بعد حينٍ من الدهر، هذا النداء.. ومن بعده تنعقد محاكمة الإنسان فى العالم الآخر، عالم الخروج إلى النهار!

ويدل هذا النداء على أهمية (الاسم) عند المصريين القدماء، مثلما تدل عليه نصوصٌ وعقائدُ أخرى كانت منتشرةً بينهم، منها أن الإنسان لكى يكون إنسانًا كاملًا، فلابد له من تحقُّق سبعة أشياء، هى الشروط الضرورية لوجود الإنسان، أو هى المكوِّنات الرئيسة لإنسانيته. وهذه السبعة هى: كا (القرين) با (الروح) آخ (الحافظة النورانية) شوت (الظل) حات (القلب) غت (الجسد) رن (الاسم).

ووفقًا للمعتقد المصرى القديم، فإن الذى لا اسم له لا وجود له. وفقًا لذلك، لا يحق للشخص أن يغيِّر اسمه، وإلا كان ذلك نوعًا من الهرطقة والكفر. مثل ما فعله

(آمنحتب) حين ترك عبادة آمون، وبدَّل اسمه إلى إخناتون التى تعنى حرفيًّا: النافع لآتون، بعدما كان اسمه الأول يعنى: آمون راضى.. وبالطبع، استحق هذا الملك لعنة (الكهنة) الذين نكَّل هو بهم فى المقابل، واضطربت أحوال مصر فى عصره، وتآكلت حدودها الشمالية مع طمع الغزاة، وساءت الأحوال العامة فى البلاد.

وعقابًا على الذنب الكبير الذى قد يرتكبه إنسان، مثل نبش قبور الموتى، كان يتم تغيير اسمه. فإن كان اسمه قبل جريمته يعنى حرفيًّا: الرب رحيم، أعطوه اسمًا معناه: الرب منتقم. وإن كان اسمه: آمون يعيش، صار الاسم العقوبة: يعيش فى النار.. وهكذا اقترن تغيير الاسم باللعنة التى يستحقها مرتكب الخطايا الكبرى.

وفى ثقافةٍ تالية، سوف يكون تغيير الاسم علامة على الحياة الجديدة للإنسان. بعكس ما كان سائدًا فى مصر القديمة. وأعنى بالثقافة التالية مصر المسيحية التى ساد فيها، ولايزال سائدًا، طقسٌ كنسىٌّ خاص بمن أراد أن يهجر العالم ويسلك طريق الرهبنة؛ إذ يتعين عليه فى هذه الحالة أن يُسجى فى مذبح الكنيسة، وتُقرأ عليه صلاة الموتى (صلاة الجنازة) ثم يقوم من رقدة الموتى، ويصير له اسم كهنوتى جديد، مأخوذٌ من أحد الأسماء الواردة فى الكتاب المقدس.. ويُلغى، تمامًا، اسمه الأول! وهذا الطقس الكنسى، مرتبطٌ بما سوف نشير إليه لاحقًا من الحكايات التوراتية. أما فى الحضارات السابقة على تدوين التوراة، وظهور الديانات (السماوية) الثلاث؛ فقد ساد الاعتقاد بلزوم الاسم لصاحبه، وهو ما لم تنفرد به مصر (القديمة) بين حضارات العالم القديم، فالحضارات الأخرى المعاصرة لها، والتالية عليها، مثل سومر وبابل وآشور وفينيقيا؛ كانت أيضًا تنظر إلى الاسم، باعتباره أمرًا لازمًا لصاحبه ولصيقًا به. بل أعتقد من جانبى أن هذه المسألة فطرية فى البشر؛ ولذا نرى الأطفال يغضبون إذا نادينا أحدهم باسم آخر غير اسمه، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل لفظ التدليل الذى يُشتق من الاسم الأصلى. أما أن يُغيَّر اسم أصلى، باسمٍ آخر أصلى؛ فهذا غير مقبول إطلاقًا عند الصغار.. ولا عند الكبار أيضًا!

غير أن تحولًا مفاجئًا حدث، من دون أن يلتفت إلى أهميته أحدٌ، وذلك لمَّا ظهرت أسفار موسى الخمسة، المعروفة بالتوراة، قبل خمسة قرون من ميلاد السيد المسيح. خاصةً السفر الأول منها «التكوين» الذى وردت فيه حالتان مشهورتان من حالات تغيير الاسم، سوف نتكلم عنهما وعن غيرهما من أسماء الأنبياء، بعد الوقوف برهةً عند هذه الكلمة :

نُبُـــوَّة

ترتبط النبوة في أذهان المسلمين، بشكل تلقائى، بشخص محمد ﷺ؛ ولذلك إذا قيل لفظ النبى، مُعرَّفًا بالألف واللام، فالمقصود بذلك حصرًا: محمد بن عبد الله.. الذى حمل عدة أسماء وألقاب: أحمد، محمد، محمود، طه.. وقد أورد ابن الجوزى فى كتابه (المدهش) عديدًا من أسماء النبى وألقابه، قبل الإسلام وبعده. ومن بينها اسم (قثم) الذى سنتوقف عنده فى آخر هذا الكتاب.

نعود للنظر فى كلمة النبوَّة التى تقتصر فى الوعى الإسلامى على شخصٍ واحد، هو النبى محمد الذى حسبما جاء فى الحديث الشريف: كنتُ نبيًّا وآدم بين الطين والماء.. وهو الحديث المشكل الذى قامت عليه فكرةُ (قِدَم الروح المحمدىّ) فكانت المسألة التى تُعرف فى التراث الإسلامى باسم: الحقيقة المحمدية، النور المحمدى. وهى فكرةٌ صوفية، وشيعيةٌ، شديدةُ التعقيد، ولا مجال هنا للخوض فيها.

وعرف المسلمون مما جاء فى القرآن أن اليهود كان لهم أنبياء. منهم مَنْ ذكرهم القرآنُ وقصَّ قصصهم، ومنهم مَنْ لم يقصص. وفى واقع الأمر، فإن أنبياء بنى إسرائيل ليسوا أنبياء بالمعنى الذى يفهمه المسلمون من كلمة (النبوة) وإنما هم أقرب إلى هؤلاء الذين نسميهم اليوم: الدعاة. أعنى أولئك المشايخ والكهول والشبان الذين صاروا يملئون القنوات الفضائية والصحف السيارة، ويؤنسون الجلسات المسائية

التى تنعقد فى بيوت الأغنياء. فهؤلاء وأولئك، يدعون إلى الله من غير تفويض منه، كُلٌّ بحسب اجتهاده، ووفقًا لما يعتقده.

ولذلك، لا يجوز الخلط بين مفهومىْ (النبى الرسول) فى الوعى الإسلامى، و(النبى) فى التراث اليهودى.. وإن كان كلا اللفظين مشتقًا من (النَّبْوة) بفتح النون وسكون الباء، بمعنى الارتفاع؛ لأن أنبياء اليهود، كانوا يكلمون الناس من فوق ربوةٍ أو مكان مرتفع. ولايجوز أيضًا الخلط بين مفهومىْ (النبى الرسول) عند المسلمين، و (الرسول) فى الوعى الدينى المسيحى، فالرسل عند المسيحيين هم تلامذة يسوع (عيسى) الذين انتشروا فى الأرض ونشروا الديانة، وبعضهم كتب الأناجيل والرسائل المشهورة التى صارت تعرف بالكتاب المقدس: العهد الجديد.

والقرآن حقًّا وصدقًا، هو الذكر الحكيم. وهو تعبيرٌ ووصفٌ للقرآن، طالما تفكرتُ فى معناه حتى تكشف لى أنه ذِكْر، من التذكُّر والقَصِّ والإبانة، وهو حكيمٌ لأنه روى القصص على أحسن ما يمكن أن تُقصَّ، وأعاد بناء صورة الأنبياء الذين ذكرتهم التوراة، على نحو حكيم يناسب أقدارهم، ويتناسب مع مكانتهم. ولسوف يتضح لنا ذلك، مع الوقفات التاليات التى سنعرض فيها للصورة التوراتية للأنبياء (المشتركين) فى الديانات الثلاث، خاصةً الأنبياء الذين تغيَّرت أسماؤهم فى مواقف مخصوصة.

أبـرام / أبـو الجمـهـور

النبى إبراهيم عند المسلمين هو (أبو الأنبياء) كما هو معروف. وهى تسميةٌ لم ترد فى القرآن الكريم، غير أنها اشتهرت على ألسنة الناس، من دون الانتباه إلى أن بعض الأنبياء سبقوه زمنًا، مثل نوح الشهير: نبىُّ الطوفان، الذى جاء بحسب النصوص الدينية، فى زمنٍ سابق بكثير على إبراهيم. بل وردت قصة الطوفان فى ألواح مسمارية، من أقدم النصوص السومرية التى دوِّنت قبل ظهور دياناتنا السماوية الثلاث.

وفى آى القرآن والذكر (الحكيم) إبراهيم، هو إبراهيم. فهو لم يكن يحمل اسمًا آخر، مثلما ورد فى سفر التكوين التوراتى، من أن اسمه كان أول الأمر أبرام. وبحسب التوراة، فهو: أبرام بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح.. وبحسب التوراة أيضًا، فإن الرب قال لأبرام: انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك (يقصد مدينة «أور» الكلدانية) إلى الأرض التى أُريك، وأنا أجعلك أمة كبيرة، وأُباركك، وأعظِّم اسمك، وتكون بركة.

وخرج أبرام من دياره الأولى بجنوب العراق، وقد بلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة. وكانت معه امرأته العاقر الجميلة (ساراى) فنزل بها أرض كنعان التى نعرفها اليوم باسم فلسطين، فتجلى له الرب هناك، وقال له: لنسلِك أُعطى هذه الأرض! وكانت هناك مجاعة شديدة، فهاجر أبرام إلى أرض مصر.. تقول الآيات التوراتية: فلما قارب أن يدخل مصر.. قال أبرام لساراى امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون، أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلوننى ويستبقونك؛ فقولى إنك أختى، حتى يُحسن إلىَّ بسببك (وفى ترجمة أخرى: ليكون لى خير بسببك).

وحصل أبرام من الفرعون على (خير) كثير بسبب جمال ساراى التى بقيت فى قصر الفرعون شهورًا، صار لأبرام خلالها؛ بحسب ما تقول التوراة: غنمٌ وبقرٌ وحميرٌ وعبيدٌ وإماء، من بينهم الجارية المصرية: هاجر.. ولكن الرب غضب على مصر! فاستدعى الفرعون أبرام، وقال له: ماذا صنعت بى؟ لماذا لم تعلمنى أنها امرأتك؟ لم قلت هى أختى حتى أخذتها لتكون لى امرأة ؟ والآن ها امرأتك خذها وامضِ.. وأمر فرعون قومًا يشيعونه هو وامرأته وكل ماله، فصعد أبرام من مصر غنيًا جدًّا بالماشية والفضة والذهب (إننى أنقل هنا الآيات من سفر التكوين، بنصها) فمضى إلى بيت إيل.. وأقام فى أرض كنعان، وقال الرب لأبرام: انظر من الموضع الذى أنت فيه، شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، إن جميع الأرض التى تراها، أعطيها لك ولنسلِك إلى الأبد.. انتهت الآيات التوراتية!.

وتؤكد التوراة أن الله وهب الأرض لليهود، تقول الآيات الصريحة فى سفر التكوين: فى ذلك اليوم بتَّ الرب مع أبرام عهدًا، قائلًا لنسلِك أُعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات (سفر التكوين، الإصحاح 15، الآية 18).. ولذلك، فإننى أرى أن اليهود فى يومنا هذا، معذورون فى مطالبتهم بما منحهم الله لهم، ومجبورون فى قبولهم بالسلام.

ثم تقول الآيات التوراتية: ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، ظهر له الرب وقال: أنا الله القدير.. أجعل عهدى معك، وتكون أبًا لجمهور من الأمم، فلا يكون اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم لأنى أجعلك أبًا لجمهور من الأمم.. (كلمة إبراهيم تعنى حرفيًا فى العبرية: أبا الجمهور) وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لاتسمِّها ساراى، بل اسمها: سارة.. وتستمر الآيات التوراتية فى حكاية وقائع حياة إبراهيم، وانتقاله إلى مملكة جَرَار التى كان يحكمها آنذاك (أبيملك) وهناك: قال إبراهيم عن سارة امرأته، هى أختى، فبعث أبيملك مَلك جَرَار، وأخذ سارة.. سفر التكوين 1/20. لكن الله أرجع سارة إلى إبراهيم ثانيةً، فظلت معه حتى ماتت عن عمر طويل، 127 عامًا. أما النبى إبراهيم، فقد مات بحسب التوراة، وعمره 175 عامًا.

وهكذا ظهرت عملية تغيير الاسم، لا على سبيل اللعنة، كما كان الحال فى مصر القديمة، وإنما كعلامة على البركة والنبوة. وكانت هذه، فيما أعلم، هى المرة الأولى التى تسجل فيها عملية تغيير الاسم فى نص دينى مقدس، بعدما كان ذلك يمثل ظاهرة (سياسية) فى مصر القديمة، يقوم بها الحكام من أمثال إخناتون ورمسيس لأغراض عملية. وفى التوراة، لم يكن تحوُّل أبرام/ إبراهيم هو التحول الأخير فى أسماء الأنبياء.

يعقــوب / إســرائيــل

حين نقول (إسرائيل) تنصرف الأذهان فورًا إلى اسم البلد الذى يجاورنا، ويدعى أهله أنهم والعرب أبناء عم. غير أن مقصودى الآن، هو بيان أن الدولة المجاورة أخذت اسمها من أشهر أنبيائها، وهو النبى يعقوب ابن النبى إسحاق بن إبراهيم أبى الأنبياء، عليهم السلام جميعًا.

وقد تحول اسم يعقوب إلى إسرائيل، فى قصة شيقة وردت بالتوراة التى نؤمن نحن المسلمين بأن اليهود حرَّفوها، ويتهمنا اليهود بالتخريف والتجديف فى حقهم؛ إذ إنهم لم يزعموا أصلًا أن التوراة كتابٌ سماوىٌّ، حتى يقوموا هم بتحريفه بعد نزوله. فالتوراة، وفقًا لما يؤمنون به، كتبها أحبارُ اليهود فى القدس (أُورُشليم) بعد عودتهم من السبى البابلى، فى حدود ألف سنة قبل الميلاد (والمؤرخون يقولون إنها كُتبت قبل الميلاد بخمسمائة عام) باللغة العبرية.

ولم تنتشر التوراة وتصير كتابًا معتبرًا، إلا بعدما أحضر ملوك الإسكندرية (البطالمة) من فلسطين، اثنين وسبعين حبرًا من أحبار اليهود، أقاموا بالإسكندرية زمنًا، أنجزوا خلاله الترجمة اليونانية للتوراة، وهى الترجمة المعروفة باسم: الترجمة السبعينية؛ نسبةً لهؤلاء الأحبار الذين ترجموها عن أصلها العبرى إلى لغة العالم المتمدن آنذاك: اليونانية. وهكذا بقيت التوراة قرونًا طويلةً، حتى وصلت إلينا بالشكل الذى نعرفه الآن، بعدما ألحقت بها بعضُ الأسفار الأخرى، ليصير المجموع هو: العهد القديم.

وفى (كتب) التوراة، سفر التكوين، الذى حكى لنا قصة أبرام (إبراهيم، أبو الجمهور) حدثت عملية تغييرٍ درامىٍّ لاسمٍ آخر. فقد أنجب إبراهيم إسحاق من امرأته سارة (ساراى) بعدما كان قد أنجب قبله ابنه البكر إسماعيل، من الجارية المصرية هاجر.. وحَرَنَتْ سارة على هاجر وابنها، فطردهما إبراهيم إلى الصحراء. تقول آيات الفصل الحادى والعشرين، من سفر التكوين: ورأت سارة ابن هاجر المصرية،

الذى ولدته لإبراهيم، يمزح. فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابنى إسحاق.. وانتهى الأمر بطرد هاجر وابنها إلى صحراء بئر سبع، وكبر إسماعيل وسكن فى برية فاران، واتخذت له أمه زوجة من أرض مصر. وعلى ذلك، فالمفترض أن المصريين هم أخوال العرب؛ لأن إسماعيل الذى هو (جد) كل العرب، كانت أمه وزوجه من مصر.

أما إسحاق، فقد تزوج فتاة جميلة، اسمها جميل: رفقة، فأنجبت له، وهو فى الستين من عمره، توءمًا: عيسو، يعقوب. ثم حدثت مجاعة فى الأرض، فنزل إسحاق بأسرته إلى مملكة جَرَار الفلسطينية التى يحكمها أبيملك.. تقول الآيات: وسأله أهل المكان عن امرأته، فقال هى أختى! لأنه خاف أن يقول امرأتى حسنة المنظر. وحدث إذ طالت له الأيام هناك، أن أبيملك رأى إسحاق يلاعب رفقة امرأته. فدعا أبيملك إسحاق وقال: ماهذا الذى صنعت بنا؟ لولا قليل لضاجع أحد قومنا امرأتك، فجلبت علينا إثمًا. وأمر أبيملك جميع القوم قائلًا: من مَسَّ هذا الرجل وامرأته، يقتل قتلًا. وزرع إسحاق فى تلك الأرض، فأصاب فى تلك السنة مائة ضعف، وباركه الرب.

وكان من المقرر أن يرث عيسو النبوة؛ لأنه نزل من بطن أمه قبل أخيه، وبالتالى صارت له مرتبة (البكورية) التى توليها اليهودية أهمية كبرى. ولما شاخ إسحاق وكَلَّت عيناه، طلب من ابنه عيسو أن يجهِّز له وجبةً شهيةً، فيأكلها، ويباركه بعدها. أى يمنحه عهد النبوة! فاحتال يعقوب على الأمر بمساعدة أمه رفقة، ودخل على أبيه بالطعام قبل أن يصل أخوه وقد غطى ذراعه بشعر ماعز، حتى يبدو ملمسه مثل أخيه عيسو الذى كان شعر جسمه كثيفًا (عيسو فى العبرية تعنى: المغطى بالشعر) فانخدع إسحاق عليه السلام، ووهب النبوة ليعقوب، وهو يظن أنه ابنه الآخر.. فلما جاء عيسو بالطعام لأبيه، انكشف الأمر! تقول الآياتُ التوراتية، ما نصه: فلما سمع عيسو كلام أبيه صرخ عاليًا بمرارة، وقال له باركنى أنا أيضًا يا أبى، فأجابه: جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك.. وحقد عيسو على يعقوب بسبب البركة التى باركه بها أبوه.

وهكذا صار يعقوب نبيًّا، ثم تغيَّر اسمه فى لحظة حاسمة إلى إسرائيل.. وما هذه اللحظة الحاسمة إلا أنه لقى الله فى الصحراء، وكان الله (تعالى) فى صورة رجل، فتصارع يعقوب والله طيلة الليل، فغلب يعقوب! تقول الآيات التوراتية: ولما رأى الله أنه لا يقوى على يعقوب فى هذا الصراع، ضرب حُق وركه فانخلع، وقال ليعقوب: طلع الفجر فاتركنى! فقال يعقوب: لا أتركك حتى تباركنى! فقال الرجل (الذى هو الله): لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن، بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس وغلبت.. وباركه هناك.

وتعنى كلمة إسرائيل حرفيًّا، فى اللغة العبرية: الذى تصارع مع الله! أو: الذى غالب الله.. وهكذا تغيَّرت أسماء الأنبياء فى التوراة، بشكلٍ درامىٍّ يرتبط بالحصول على النبوة والبركة. ومادمنا قد تعرضنا لهذه المسألة، فلننظر فى مسألة قريبة منها، هى (تموضع) أسماء اثنين من الأنبياء أو الحكماء المذكورين فى كتبنا المقدسة.

أحيقار / لقمان

جاء ذكر (لقمان) فى القرآن الكريم، موصوفًا بأنه (الحكيم) من دون تصريح بنبوته. فكأنه واحدٌ من الأنبياء الذين لم يقصص القرآن قصصهم، أو هو حكيم فحسب.. وهناك سورة كاملة باسم (لقمان) فى المصحف الشريف، وهى السورة الوحيدة التى ورد فيها اسمه ونصائحه الباهرة التى أسداها لابنه.. وفى سورة لقمان تحولان كبيران فى السياق، قبل الآيات ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾.. ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ وبعدها مباشرة! فالآيات التى تتحدث عن لقمان وتورد نصائحه (من الآية 12 إلى الآية 19) يسبقها مباشرة قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ ثم يتلوها مباشرة قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾. . فكأن قصة لقمان وابنه، لا تعلق لها بما قبلها ولا بما بعدها. وهى تقوم وحدها، مرة واحدة، فى المصحف الشريف كله، فلا ترد عنها أية إشارة أخرى فى أية سورة أخرى.

وهناك أمرٌ دقيقٌ آخر يلفت النظر فى مسألة (لقمان) وهو أمرٌ قلما نتوقف عنده. أعنى بذلك أن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن، كلهم تقريبًا، ورد ذكرهم فى التوراة وفى الأسفار القانونية، أو فى الأسفار غير القانونية المعروفة باسم (الأبوكريفا) حتى الشخصيات غير النبوية المذكورة هناك، مذكورة هنا! مع اختلافٍ طفيفٍ فى بعض الأسماء، واتفاقٍ فى البقية. . ففى القرآن الكريم (قابيل) هو فى التوراة: قايين، ولكن أبوه (أبو البشر) فى الاثنين آدم، ونوح هو نوح، وموسى هو موسى؛ ولكن (يحيى) هو يوحنا المعمدان، و(اليسع) هو أليشاع. . وهكذا.

أما بخصوص لقمان، فإنه لم يظهر فى الكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراة وملحقاتها) والجديد (الأناجيل الأربعة وملحقاتها). . وإنما يتشابه لقمان مع يشوع بن سيراخ. وهو شخصية غامضة لها (سِفْرٌ) قائم بذاته من أسفار العهد القديم، وكان يشار إليه مبكرًا باسم: الكنسى! وهو بحسب الاعتقادات اليهودية والمسيحية، من الأنبياء المتأخرين (عاش فى حدود سنة 180 قبل الميلاد) ويضم سِفْرُه نصائحَ مفصلةً تبدأ بوصايا الوالدين، ثم الدعوة للتواضع وفضائل الأعمال، على نحو ما هو مذكورٌ بإيجاز فى القرآن الكريم. وقد انطمس سفرُ يشوع بن سيراخ قرونًا طويلة، حتى عُثر عليه فى القاهرة بالمجمع اليهودى (الجنيزة) ثم وُجدت مقاطع منه ضمن مخطوطات وادى قمران.

وإذا كان يشوع بن سيراخ فيما يبدو، هو الأصلَ فى شخصية لقمان القرآنية؛ إلا أن يشوع بن سيراخ ذاته، له أصل أقدم منه بحوالى خمسة قرون؛ إذ إن هناك شواهد قوية، تدل على أن الأصل فى شخصيتىْ: يشوع بن سيراخ، لقمان الحكيم، هو تلك القطعة الأدبية الفريدة التى تزدان بها الآداب الآرامية المبكرة، على هيئة

قصة مليئة بالعبر لحكيمٍ آرامى عاش فى الزمن السحيق، هو: أحيقار الحكيم، وزير الملك سنحريب.

وأقدم نَصٍّ آرامىٍّ (سريانى) لقصة أحيقار، تم اكتشافه؛ يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. وقد عثر عليه فى أسوان بجنوب مصر، وهو يحتوى على قصة أحيقار كاملةً. الحكاية ملخصها أن رجلًا فاضلًا اسمه أحيقار، كان وزيرًا لملك اسمه سنحريب؛ وكان هذا الوزير يتولى تربية ولدٍ يتيم، هو فى واقع الأمر ابن أخيه المتوفى. ولما كبر الغلام، أراد أحيقار أن يستعين به فى أعمال الوزارة. غير أن الشاب طمع فى الوزارة، وسعى بالمكيدة بين عمه والملك، فانقلب الملك على عمه زمنًا حتى اكتشف ما فعله الشاب، فأعاد أحيقار إلى الوزارة.. فما كان من أحيقار إلا أن عفا عن ابن أخيه، وأخذ يسدى إليه النصح (فى النصف الثانى من النص) ويعظه بمواعظ، كتلك التى نجدها فى القرآن الكريم، منها مثلًا قوله: لا ترفع صوتك ابتغاء بناء بيت، فلو كان البيت يبنى بالصوت المرتفع، لكان بيت الحمار من طابقين.. وهو ما يذكِّرنا بالآية القرآنية ﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ وهناك كثير من النصائح المشتركة فى القصتين، مثل برِّ الوالدين وعدم التباهى؛ وغير ذلك الكثير من وجوه التطابق فى النصائح، التى تعد فى قصة (أحيقار) آية من آيات البلاغة الآرامية، مثلما تعد القصة القرآنية للحكيم (لقمان) آية من آيات البلاغة العربية.

وهكذا تمَّ هذه المرة التحول التدريجى بالاسم من أحيقار إلى لقمان، لا بسبب لعنة كما كان فى مصر القديمة، ولا بسبب بركة كما يرد فى التوراة.. وإنما بسبب الرحلة الطويلة التى قطعتها هذه القصة الشيقة، بين اللغات الآرامية والسريانية والعبرية والعربية.. وهنا يأتى السؤال: هل أدَّت هذه الرحلة الطويلة للقصة، وتقلُّبها بين عدة لغات؛ إلى انقلاب الاسم من أحيقار إلى أحيقان إلى لقمان ؟

15 جَاهِلِيَّةٌ

يشار دومًا إلى فترة ما قبل الإسلام من حياة العرب، بوصف: الجاهلية. وهى كلمة تنطوى على شيء من الإدانة، للزمان العربى الذى امتد قبل الإسلام.. فهل كان العرب قبل الإسلام، يعيشون حقًّا: الحالة الجاهلية؟ سواءٌ كانت الكلمة تعنى (الجهل) أو تعنى كما يقال (العنف) أو البعد عن حالة التحضر؟

لابد أولًا من الإشارة إلى أن العرب بالمعنى الحقيقى للكلمة، لم يكونوا (فقط) أهل قريش من الكفار. فالحضور العربى قبل الإسلام، كان كثيفًا فى شمال الجزيرة العربية (منطقة الهلال الخصيب) وكان عريقًا فى أقصى الجنوب الغربى (اليمن).. وفى هاتين المنطقتين، شمال الجزيرة وجنوبها، كانت حضارة العرب قبل الإسلام. ويقال إن لغة عرب الشمال، كانت مختلفة تمامًا عن لغة عرب الجنوب. لكننى لن أطيل الوقوف عند هذه الحقيقة، فقد ذكرها كثيرٌ من المستشرقين، وتحدث عنها طه حسين، فعارضوه وعاركوه ومزقوا ملابسه! وأنا هنا فى غنى عن الاعتراض والاعتراك وتمزيق الملابس. المهم أن عرب الجنوب، كانت لهم حضارة، أشار إليها القرآن الكريم فى الآيات التى تحدثت عرضًا، عن ملكة سبأ، التى أتى بها سليمان، النبى عند المسلمين/ الملك عند اليهود، وتزوَّجها بعد وقائع لامجال لذكرها هنا كلها، وكلها مؤكِّدة لسلطان النبى سليمان الذى سخَّر له الله الإنس والجن وقوى الطبيعة ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾ وبذلك استطاع سليمان أن يأتى بملكة سبأ بلقيس وبعرشها ذاته. وعلى هذا النحو، جاء ذِكْرُ مملكة سبأ العربية، عرضًا، لبيان اتساع سلطان سليمان فى زمانه. مع أن التاريخ يقول

إن مملكة سليمان، كانت واحدة من خمسين مملكة فلسطينية، وكانت مساحتها فى حدود عشرة كيلومترات مربعة.

أما عرب الشمال، فالحديث عنهم يطول، إذ يؤكد التاريخ أنهم كانوا جماعات كبيرة، كثيرة، على درجة عالية من التحضر قبل بضعة قرون من ظهور الإسلام. وهناك شواهد كثيرة على ذلك، منها أن ملكة تدمر العربية: زنوبيا (الزباء) كانت مملكتها فى قلب الشام قد اتسعت، حتى شملت المنطقة الممتدة من حدود دولة الفرس إلى غرب الإسكندرية. وقد انزعج الرومان منها، فحاربوها واستطاع أورليان أن يهزمها بحيلة عسكرية، ويقبض عليها سنة 272 ميلادية، ويقتادها إلى روما أسيرةً. وقام الرومان بتخريب تدمر، وتدميرها بالكامل، ومع ذلك، فإن معبد بعل الهائل، استعصى على التدمير. ولاتزال أعمدته وبوابته الحجرية العالية وردهاته، قائمةً حتى اليوم. على الرغم من مرور هذه القرون الطوال، الحافلة بالاضطرابات والحروب التى ثارت بين البشر، وبالزلازل والهزَّات التى أسقطت ما فوق الأرض.. لتذكر بقايا المعبد بالمجد الذى كانت عليه هذه المملكة العربية الشمالية.

وفى شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام، كانت أيضًا المملكة العربية الكبيرة التى عاصمتها البتراء. وقد استطاع أهلها، قبل الإسلام بعدة قرون، أن يتخذوا من الجبال بيوتًا، وينحتوها هذا النحت الرائع، الذى لايزال يبهر الزائرين لهذه المنطقة الواقعة اليوم فى قلب الصحراء القاحلة، الممتدة جنوبى العاصمة الأردنية عَمَّان. وبعدما كانت هذه المنطقة فى القرون الغابرة، عامرةً آهلة بالسكان، لوقوعها على طريق البخور. وهو الطريق الذى كان مسارًا للقوافل التجارية من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها.. وقد أُشير إليه فى الآيات القرآنية الكريمة، برحلة الشتاء والصيف.

وفى المنطقة الشمالية ذاتها، عاشت قبل الإسلام ممالك عربية كبيرة، بدمشق وحلب وأرض فلسطين ولبنان. ودخلت هذه الممالك حينًا من الدهر فى سلطان

الرومان، ونعمت فى أحيانٍ أخرى بالاستقلال؛ لكنها ظلّت فى كل الأحوال عربيةً، غير مشكوك فى عربيتها. وكذلك كان الأمر فى جنوب العراق، حيث عاشت قبيلة تغلب التى قضى عليها برعونته وطيشه المهلهل بن ربيعة المعروف بالزير سالم. فقد أراد أن يثأر لمقتل أخيه الملك كليب، فأحرق الأخضر واليابس، وكادت قبيلتا تغلب وبكر تستعيدان عافيتهما بعده، لولا ظهور الإسلام.. ولذلك كان يقال قديمًا: لولا الإسلام لأكلت تغلب الناس!

وقبل الإسلام، وقبل حماقات الزير سالم؛ اتحدت القبائلُ العربيةُ فى جنوب العراق، وواجهت بجيوشها جيش دولة الفرس العظيمة، واستطاع العرب أن يهزموا الفرس فى موقعة ذى قار، التى وقعت فى الزمن المسمى بالجاهلية. وفى الزمن المسمى بالجاهلية، كانت حكمة أمية بن أبى الصَّلت، وكانت ديانة الأحناف، وكانت سيادة المسيحية على المذهب النسطورى، وكانت القصائد الطوال (المعلقات) التى منها معلقة الحكيم العربى زهير بن أبى سلمى الذى ظهر الإسلام وعمره تسعون عامًا.. يقول (زهير) فى معلقته الشهيرة، ضمن ما يقول:

فلا تكتمنَّ الله ما فى نُفُوسكم
ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخّر فيوضع فى كتابٍ فيدَّخر
ليوم حسابٍ أو يعجّل فينقمِ

ويروى كَتَبةُ السيرة النبوية، أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى (زهير) بعدما بلغ من العمر ما ذكرناه، وكان النبى فى أول بعثته. يقول رواةُ السيرة النبوية: فارتجف منه النبى، وقال: اللهم أعذنى من شيطانه! ولا ننسى هنا، أن (ابن) زهير بن أبى سلمى، هو الشاعر الذى قال آخر قصيدة مجيدة فى الأدب العربى السابق على الإسلام، ومن بعده سكت الشعر وصمت الشعراء الذين بحسب القرآن الكريم

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ . . وهذا الشاعر (الأخير) هو كعب بن زهير الذى افتدى نفسه من الموت الذى حكم به النبى عليه، بقصيدته البديعة التى مطلعها:

بانتْ سعادُ فقلبى اليوم متبولُ

متيمٌ إثرها لم يُفد، مكبولُ

لقد ظهر الإسلامُ فى منطقة الوسط من الجزيرة العربية التى يجوز أن توصف أحوالها فى هذا الزمان بالجاهلية؛ لأنها كانت أقل المناطق العربية تحضرًا بحكم الجدب المحيط بها. أما عرب الشمال وعرب اليمن، فلا يصح أن نصفهم فيما قبل الإسلام، بأنهم: جاهليون.

16 أُمِّــــىّ

يُشار بهذه الكلمة إلى الشخص الذى لا يجيد القراءة والكتابة، فهى فى اللغة العربية مشتقة من (الأُمِّية) التى يُعتقد أنها الجهل بالقراءة. وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم، بأنه النبى الأُمِّىّ. وهو وصف فهم منه المسلمون دومًا أن النبى كان لا يقرأ ولا يكتب. وفى تاريخنا الفقهى قضية شائكة، مفادها أن بعض العلماء القدماء استندوا إلى الواقعة المشهورة التى حدثت يوم صلح الحديبية، حين اشترط الكفار للتوقيع على معاهدة الصلح، أن يُشطب منها عبارة (محمد رسول الله) لأنهم لو كان يقرون بذلك أصلًا، لما اختلفوا معه.. ويومها، رفض الإمام علىٌّ بن أبى طالب أن يشطبها، فأخذ النبى الوثيقة وشطب عليها، وكتب مكانها: محمد بن عبد الله. وهكذا تراضى الطرفان، وتم التوقيع وإبرام الصلح الذى امتد أعوامًا انتهت بفتح مكة.

والذين استندوا إلى هذه الواقعة لبيان أن النبى ﷺ كان يقرأ ويكتب، فهموا من أولى آيات القرآن نزولًا ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**..﴾ وهى سورة العلق؛ أن الحوار الذى دار بين جبريل والنبى، وتكرر فيه: اقرأ، ما أنا بقارئ. إن المراد بقوله (ما أنا بقارئ) هو: ما الذى يجب أن أقرأه! باعتبار أن القراءة تعنى التلاوة، أو الإذاعة لكلام الله (القرآن).

وهذه القضية تكسَّرت فيها النصال على النصال؛ إذ ثار العلماءُ القدماءُ على العلماء القدماء الذين قالوا بمعرفة النبى للقراءة والكتابة. وهكذا انعقد رأىُ الجمهور على أن النبى كان أميًّا، بمعنى أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة، وصار رأى

جمهور الفقهاء مشهورًا حتى يومنا هذا، وكأنه أحد البديهيات، مع أن القول بأمية النبى، بهذا المعنى للأمية؛ يناقض حديثًا نبويًا شهيرًا يصف فيه النبى نفسه بأنه: مدينة العلم. وليس من المعقول منطقيًا، أن يكون النبى وهو (مدينة العلم) جاهلًا بأبسط قواعد العلم والإلمام بالقراءة والكتابة.

وأرى من جانبى، اجتهادًا، أن المراد بالأمية فى القرآن الكريم، وفى الزمن السابق على الإسلام؛ ليس هو الجهل بالقراءة والكتابة، وإلا فإن قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ**. .﴾ لا يُقصد به أن العرب كانوا جميعًا جاهلين بالقراءة والكتابة. حتى وإن كان المقصود بالذات، عرب قريش؛ إذ إن كثيرًا من القريشيين كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وعديدٌ من الصحابة المشهورين، رجالًا ونساءً، كان يكتب ويقرأ.

ومن ثم، فليس المقصود بالآيات هو المعنى المشهور للأُمية، بحسب ما نفهمه اليوم، بل المراد أن الله، بحسب المفهوم اليهودى السابق على الإسلام؛ كان يبعث الرسل ويختار الأنبياء من ذرية إبراهيم وإسحاق تحديدًا، وليس من غيرهم من بقية الناس الذين تسميهم التوراة: الأمم! إذ هناك أبناء الرب من سلالة يعقوب (إسرائيل) وهناك من دونهم (الأمم) الذين نظر اليهود إليهم على أنهم أقل منهم مكانةً وشأنًا.. ومن تلك الأمم العرب وبقية شعوب المنطقة.

ونظرًا لأن الحرف المشدَّد فى اللغة العربية، هو فى واقع الأمر حرفان متتاليان، فإن الأُمِّىّ والأُميين، تعنى: الأممى والأمميين. وقد استخدمت الصيغتان (أُمِّىّ، أُمِّيّون) لسهولة النطق بهما لا غير؛ ومن ثم، فإن النبى والعرب عمومًا (أميون) بالمعنى التوراتى، لا بمعنى الجهل بقواعد القراءة والكتابة.. ولا عبرة هنا بما يزعمون من أن المعجزة الكبرى للنبى (القرآن) معجزةٌ؛ لأن النبى لم يكن يقرأ كتب الأقدمين، لأنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة؛ ذلك لأن مضامين هذه الكتب كانت منتشرة آنذاك فى صورة شفاهية، ولا يلزم لمعرفتها إجادةُ القراءة والكتابة.

17 هِجْرَةٌ

أصابنى فزعٌ حين علمت أن معظم الشباب الأقباط، إناثًا وذكورًا، من سن العشرين إلى الخامسة والثلاثين (تقريبًا) تقدموا بطلبات هجرة إلى كندا وأمريكا وأوروبا وأستراليا. بل يقال إنه لا يوجد شابٌ قبطىٌّ أو شابة، خصوصًا خريجى الجامعة، إلا وقد تقدم بطلب هجرة واحدٍ على الأقل! وكثيرٌ منهم يتقدَّمون بأكثر من طلب، إلى أكثر من جهة، حتى إن طلباتٍ الهجرة المقدَّمة اليوم إلى الجهات الأجنبية، وصل عددها إلى قرابة عشرة الملايين. ولا يقتصر هذا الأمر على شباب الأقباط، فإن كثيرين من أقرانهم المسلمين، يتدافعون أيضًا لتقديم هذه الطلبات أو الالتماسات للجهات المعنية بالأمر، مثل السفارات وإدارات الهجرة ومكاتب (القُرعة) التى يسمونها اليوم: اللوتارى.

وقد ابتدأت هذه (الهوجة) منذ سنين، وظلت تشتد مع الأيام، حتى صارت تجارة رائجة لشركات ومكاتب متخصصة فى صياغة الطلبات، وتأهيل الطالبين للوصول إلى مُناهُم ومنتهى أملهم. وكما نعرف، فالقليل من (المحظوظين) هاجر بالفعل إلى خارج مصر، والغالبية لا تزال تنتظر البشارة.. بالرحيل.

ولفزعى من هذا الأمر أسبابٌ. أولها ما يرتبط بالهجرة ذاتها، كلفظ ومعنى، من مفاهيم موحشة مثل: الهجر، الهجران، الهجير، المهاجر، المهجور.. إلخ، وهى مفاهيم استبدت بنفوس مُقدمى هذه الطلبات، ودفعتهم لتقديمها أملًا فى الخلاص من أمور تحيط بهم. وهى أمورٌلم يهتم أحدٌ منا ببحثها بشكل جاد، والنظر فى دواعيها الخفية والمعلنة. وقعودنا عن العناية بأمرٍ كهذا، فيما أرى، سببٌ قوى لإثارة الفزع.

وسببٌ آخر خطيرٌ، هو أن الملايين ممن ينوون الهجرة، يكونون قد هاجروا نفسياً لحظة تقديم الطلب، وهجروا الوطن على المستوى الشعورى. ويظل حالهم على هذا، حتى لو ظلوا سنوات ينتظرون الإشارة بالرحيل. فتكون النتيجة الفعلية أننا نعيش فى بلدٍ فيه ملايين المهاجرين بالنية، أو المهاجرين المؤجلة هجرتهم، أو الذين رحلوا منٍ هنا بأرواحهم، ولا تزال أبدانهم تتحرك وسط الجموع كأنها أبدان الموتى الذين فقدوا أرواحهم، ولم يبق لديهم إلا الحلم الباهت بالرحيل النهائى.

وسببٌ آخر للفزع من هذا الأمر، وهو أن طالبى الهجرة من المسيحيين والمسلمين، هم شباب (متعلم) كان يُفترض أنه سوف يحمل (الشعلة) فى السنوات القادمة. وبالتالى، فإن خروجه النهائى من هنا، يعنى أن المستويات الأدنى من الشباب المصرى، هى التى ستبقى، ومن ثَمَّ، تبقى البلاد، مع هذا النزيف، محلًّا للأقل تعليمًا وموهبة وتأهيلًا.. قلت ذلك لواحد من الملايين الطالبين للهجرة، فردَّ بما معناه: وأين هى (الشعلة) التى من المفترضٍ أن نحملها؟ وهل تعتقد أننا سوف ننسى الأزمة الذاتية التى نعانى منها، ونفكر فى أزمة مجتمعية، يمكن أن تحدث بمصر، بعد هجرتنا؟.. وقال هذا الشباب كلامًا آخر، لا أستطيع أن أذكره هنا.

وسببٌ أخيرٌ لفزعى من هوجة الهجرة، هو إطاحتها بالشعور بالوطن (الأم) الذى تتأسس عليه كثير من الرؤى والأفعال الاجتماعية.. وقولنا عن الوطن إنه (أم) يعنى عديدًا من الدلالات التى أراها تتبدَّد منا يومًا من بعد يوم. فلا يبقى لنا إلا أن نردِّد مع أحمد الشهاوى قصيدته التى قرن فيها الوطن بالأم بالحديث الشريف المشهور، فقال شعرًا:

ثم مَنْ؟ وطنى..

ثم مَنْ؟ وطنى..

ثم مَنْ؟ وطنى!

واللهِ ما جئناك يا وطنى، إلا لنشرب نَخْبَ حسرتنا.

18 خُرَافـــات

لأصل كلمة (خرافة) قصةٌ مشهورة فى تراثنا القديم، تعود إلى عصر ما قبل الإسلام المسمى اعتباطًا بالزمن الجاهلى.. وموجزُ القصة المشهورة التى وردت فيما لاحصر له من مصادر تراثنا العربى، كالتالى: كان (خرافة) رجلًا من قبيلة جهينة، أو من بنى عذرة، فاختطفته الجنُّ ومكث معهم سنين، ثم عاد بعد ذلك إلى قومه. ولمَّا سأله أهله عما رآه خلال سنوات غيابه، راح يحدِّث الناس بما شاهده وعاينه من أحوال الجن، فكانوا يكذبونه، ولكنهم يستمتعون بحكاياته، ثم صدَّقوها مع الأيام؛ وصارت كلمة خرافة تعنى فى لغتنا، كما يقول العلامة ابن منظور فى اللسان: الخرافة هى الحديثُ المستملحُ من الكذب، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: (خرافةُ حَقٌّ).

ثم تطورت دلالة الكلمة فى اللغة العربية مع الأيام، فصارت الخرافة تعنى ما لا يقبله العقل من حكايات وأفكار. ويوصف بها ما لا يمكن البرهنة عليه أو التأكُّد من صحته، ومع ذلك يقبله الناس ويعتقدون فيه. ونظرًا لما تمتاز به اللغة العربية من قدرات اشتقاقية هائلة، فقد اشتُقَّت من هذه الكلمة كلمات كثيرة، مثل: خرافى، مُخرِّف، خرافات، تخريف، خَرِف، تخاريف، مخرِّفين.

وإذا نظرنا للأمر بعيدًا عن ظاهر اللفظ ومشتقاته، متأملين فى طبيعة الخرافة والميل الفطرى إليها ـ أمكننا أن نقول باطمئنانٍ تام: إنه لايوجد مجتمعٌ إنسانى أو فردٌ من أفراد الإنسانية يعيش بلا خرافات.. غير أن نسبة الخرافة تقل أو تزيد فى كل ثقافة من الثقافات، بحسب درجة تحضر هذا المجتمع أو ذاك، وبحسب تطور

الوعى الفردى الممتد عند هذا الفرد أو ذاك. ففى أزمنة التخلف، تسود الخرافات نتشكّل الوعى بالعالم لدى الفرد والجماعة. وكلما تطور الواقع الإنسانى بالاعتماد على (العقل) قلَّت نسبة الخرافات السائدة. ولكن المجتمع مهما بلغت درجة تطوره، لايمكن أن يخلو تمامًا من الخرافة، نظرًا لتأثيرها المهم فى الناس.

وتأثيرُ الخرافة مزدوجٌ، بعضه إيجابى وأكثره سلبى. ويظهر التأثير الإيجابى للخرافات فى التوازن النفسى الذى تقوم من خلاله هذه الخرافة أو تلك، بملء المناطق الغامضة والملتبسة بصدد وعينا بالعالم، وبإيجاد سبب مقبول لكل ما هو غير مفهوم، حتى وإن كان هذا (السبب) غير منطقىٍّ وغير عقلانىٍّ وغير مبرهنٍ عليه.. كما تقوم الخرافة بدور أساسى فى تدعيم فكرة الصبر عند الفرد والجماعة، حين تسوء الأحوال العامة والخاصة؛ فيتم التأسِّى بالخرافة، تلافيًا لطغيان الأسى. ويكون الأمر، كما قال ابن زيدون فى قصيدته النونية الشهيرة:

نكـــادُ حـــين تناجـيكم ضـمائـــرُنا
يقــضى علينـــا الأســى لولا تأسِّينـــا

على أن للخرافة تأثيرات سلبية، لاتعدُّ ولاتحصى. والتاريخ ملىء بالوقائع التى تصدَّت فيها الخرافات للإبداعات العلمية، فأجهضتها ونكَّلت بأصحابها. ومن المضحك فى زماننا أننا نجد كثيرًا من الناس مازالوا عاكفين على خرافات من الماضى، مستأنسين بها، فمن ذلك اعتقادهم أن الأرض هى مركز الكون، وأن الإنسان لم يصعد للقمر؛ لأنه لا يمكن اختراق السماء، وأن القيامة قريبةٌ والحساب وشيك، وأن مكة هى مركز الكون، وأن الشيخ الفلانى يعالج الذين تلبَّسهم الجن، وأن الذى يشرب من ماء النيل لابد أن يعود إليه، وأن العفاريت تسكن الأماكن المهجورة، وتشاغب الناس وتدخل أجسامهم، وأن بعض الرجال يتزوجون من جنيات أو يؤاخون الجن، وأن الحاكم هو ظِلُّ الإله على الأرض.. مهما كان هذا الحاكم مستبدًّا!

على أن بعض الخرافات طريفةٌ، وليس لها أثرٌ مباشر، لاسلبًا ولا إيجابًا. ومن طرافة هذا النوع من الخرافات أنه ينطوى بفحواه ومعناه الأصلى، ويظل لفظُه سائدًا فى الزمان.. ومن ذلك، ما نراه مختبئًا وراء الكلمات التاليات:

رِيشَـــةٌ

على راسه ريشة.. عبارة نقولها كثيرًا فى كلامنا اليومى لوصف شخص يمتاز عمن حوله بأمر خفى. وقد نقولها لشخصٍ ما، على سبيل السخرية والسؤال الاستنكارى: على راسك ريشة!.. وربما نظن للوهلة الأولى أن الريشة هنا هى إشارةٌ إلى النفوذ والسلطان، على اعتبار أن بعض الحكام والسلاطين، كانوا قديمًا يضعون على رءوسهم عمامة، فيها ريشة ملونة من ريش الطاووس أو غيره من الطيور. غير أن هذه الصورة المتخيَّلة لعمائم الحكام، هى صورةٌ غير حقيقية توهمناها لما رأيناها فى الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، فاعتقدنا أنها كانت موجودة بالفعل! ولكن الواقع غير ذلك، فنحن لانكاد نجد (خبرًا) واحدًا فى تراثنا يقول: إن حكامنا القدامى كانوا يضعون على رءوسهم تلك العمامة المحلاة بالريشة. وبالتالى فإن تعبير (على راسه ريشة) يصعب رَدُّه إلى عمائم الملوك والسلاطين فى تراثنا.. وبالمناسبة، فقد وضعت كلمة (خبر) هنا بين قوسين، إشارة لما ذكرناه سابقًا من مخايلة الصورة الذهنية للماضى، ومخالفتها للوقائع الفعلية.

إذن، فالأصل فى هذا التعبير الشهير لايعود إلى عمائم الحكام. ولو كان الأمر كذلك، لصارت العبارة: فى عمامته (عِمَّته) ريشه! أو شىء آخر من هذا القبيل، وليس بهذا الشكل المحدد التى لا تختلف صيغته الواحدة، فهى دومًا تأتى على هذا النمط الواحد: على راسه ريشة؛ ومن ثم، فإن علينا أن نغوص أكثر فى ماضينا فيما وراء زماننا الإسلامى، للنظر فى أصل هذه الريشة المشار إليها. بل نعود إلى ماضٍ بعيد اندثر منذ ألوف السنين، وبقيت الكلمة شاهدًا عليه.

فى العقائد المصرية القديمة، كان هناك تصور للآلهة يقوم على فكرة التعدد، لا الإله الواحد. اللهم إلا فى محاولة إخناتون الفاشلة لتوحيد الآلهة.. وفى إطار هذا التعدُّد، كان للقوى الطبيعية وللمبادئ الأخلاقية آلهةٌ مخصوصة. فالذى يصنع البشر من الفخار هو الإله خنوم، والذى ينفخ الروح فيهم هو آمون، والذى يهيمن على العالم الآخر هو أوزير المعروف لدينا بالصيغة اليونانية لاسمه: أوزوريس! والتى تحرث الأرض وتثمر النبات هى الإلهة حتحور، أو البقرة المقدسة التى تتخذ فى أزمنة الحرب صورة اللبؤة سِخْمِتْ.. وعلى هذا النحو، صاغ المصرى القديم فى الوادى (والدلتا من بعد) صورة الآلهة فى ذهنه، وعاش ألوفًا من السنين يعتقد فيها.. ثم انقضت تلك السنون وأهلها، وماتت هذه الآلهة القديمة بموت الذين كانوا يعتقدون فيها.

ولأن العقيدة الدينية فى مصر القديمة كانت تمثل فى تاريخ الإنسانية (فجرَ الضمير) وهو عنوان كتاب هنرى برستيد الشهير، الذى تتبع فيه نشأة فكرة الضمير، وجذورها الأولى فى مصر القديمة؛ فقد كان من الضرورى أن يتصوَّر المصريون القدماء أن للعدالة إلهةً مخصوصةً. وكانت ماعت هى ربةُ العدالة، وهى إلهةٌ ذات مكانة خاصة فى العقيدة المصرية القديمة، ولها مكان مخصوص فوق كل الآلهة وكل الفراعين. حتى إننا نجد على توابيت الملوك تحت صورتها نقشًا يقول (عاش فى ماعت) للدلالة على أن هذا الملك أو ذاك، عاش حياته عادلًا.. وكانت ماعتُ ترسم على هيئة امرأة مجنحة، على رأسها ريشة. وهى الريشة التى تُوزن بها أعمال الناس يوم البعث، فتوضع الأعمال التى قام بها الإنسان فى كفة ميزان، والريشة التى على رأس ماعت فى الكفة الأخرى. فمن رجح ميزان أعماله، صار خالدًا مع الآلهة، وتكون علامة دخوله عالم الخلود، حيث النعيم المقيم، هى ريشةُ ماعت.. ويكون هذا الشخص: على رأسه ريشة! فتأمَّلْ طرافة هذه الخرافة، التى وصلت إلينا من ألوف السنين، عبر هذا التعبير اليومى المعتاد. على أن طرائف الخرافات لاتزال كثيرة، ومنها تلك التى شاعت مؤخرًا حتى صرتُ أسميها: الخرافة التِّجارية! وبيانها كما يأتى:

الطَّــالِــعُ

للإنسانية خرافات (تجارية) يروِّج لها أصحابُ الانتفاع بها، حتى يعتادها الناسُ ويدمنوا عليها، ويكفُّوا عن السؤال حول صحتها ومشروعيتها. ثم تصير مع استقرارها فى الأذهان واحدةً من (اللطائف) الكثيرة التى تحلو بها حياةُ الناس وتحتمل. ومن أشهر هذه الخرافات وأكثرها انتشارًا فى بلادنا، وبعض البلاد الأخـرى، خرافة: قراءة الطالع، ومحاولة استطلاع المستقبل برصد النجوم والأبـراج، والنظر فى باب حظك اليوم الذى تنشره معظم الجرائد والمجلات؛ ومن ثَمَّ، فقد صار لهذا الموضوع مردودٌ اقتصادى كبير، خاصةً مع النشاط المتزايد للمؤلفين الذين تحقق أعمالهم فى الأبراج و الأبراج الصينية عائدًا كبيرًا، بل تحتل هذه الكتب (الأبراجية) قائمة أعلى الكتب مبيعًا. وبعيدًا عن الجانب المالى من الموضوع، فقد صارت عادة لدى الناس أن ينظروا فى الجرائد والمجلات لاستطلاع حظك اليوم. ولسوف نرى بعد قليل أنه ليس حظك وحدك، وإنما هو حظك وحظ الآخرين، اليوم وكلَّ يوم.

تقوم خرافة الطالع على فكرتين أساسيتين. الأولى منهما فكرةٌ موروثة من الأزمنة السحيقة؛ إذ قام الفلكيون القدماء برسم خطوط وهمية تصل بين نجوم السماء، لإيجاد شكل افتراضى يجمع بين النقاط المتجاورة التى نسميها نجومًا أو كواكب (لم يكن القدماء يفرقون بين النجم والكوكب) من قبل أن يعرفوا الحقيقة العلمية التى أكدتها الدراسات الفلكية المعاصرة، وهى أن بعض النجوم التى لانزال نراها فى السماء، اختفت منذ زمن طويل، وأن ضوءها يستغرق مئات السنين، حتى يصل إلينا.. المهم، أن هذه الخطوط الافتراضية أعطت أشكالاً متخيَّلة، تجمع بين مجموعة نجوم مثل (القوس) الذى كان يسمى قديمًا الرامى. أو مجموعة (الأسد) التى لا أعرف لماذا لاتكون النمر أو الفهد، مع أن لهم جميعًا الهيئة ذاتها.. وعلى هذا المنوال، تمَّ تخيُّل بقية المجموعات التى تحمل أسماء الأبراج المشهورة: العقرب، السرطان، الجدى، الميزان.. إلخ.

وكانت هذه المجموعات النجمية، قديمًا، ثمانية وأربعين، ثم اشتهر منها في وعينا المعاصر اثنتا عشرة. وتجب الإشارة هنا، إلى أن واحدًا من أهم الأعمال الفلكية في التراث العلمي العربي، كان كتاب أبي عبد الرحمن بن عمر الصوفي (صور الكواكب الثمانية والأربعين) وهو كتاب ذاعت شهرته في القرون الماضية، واستفاد منه الفلكيون الغربيون كثيرًا، ولاتزال مخطوطاته المزدانة بالرسوم تملأ الخزانات الخطية العتيقة.

والفكرة الأخرى التي تقوم عليها خرافة الطالع، هي افتراضُ أن شهور السنة الشمسية، تمثل دائرة افتراضية مقسمة إلى اثني عشر جزءًا، تحيط بها دائرة أكبر (افتراضية أيضًا) تضم فلك البروج أو المجموعات الاثنتي عشرة المشهورة. وقد ساد الاعتقاد منذ زمن البابليين أن البرج الفلكي الذي يعلو افتراضيًا فوقنا، يؤثر فينا بشكل سحري نظرًا لارتباط الدائرتين: دائرة التقسيم الاثني عشري للشهور، ودائرة فلك البروج.. وبالتالي، فإنه يمكننا أن نعرف مستقبل (المواليد) برصد (الأبراج) المرتبطة بها، أو التي تعلوها! ومن هنا سمي البرج برجًا؛ لأنه يقوم عاليًا فوق الأرض. وقد كان للبابليين، أصلًا، مدينة تشبه البرج؛ لأنها عالية ومتعددة الطوابق (المصاطب) وقد ورد ذكرها كثيرًا في التوراة؛ لأن البابليين أيام مجدهم القديم، قاموا بسبي شعوب المنطقة لسنوات طوال، وكان اليهود من الجماعات التي تعرضت للسبي، على يد الملك البابلي بختنصَّر. ومن هنا، فإن فكرة البرج الفلكي لم تكن غريبة على ذهن أهل بابل، ثم أخذت منهم شعوب المنطقة فكرة الأبراج الفلكية.

غير أن أمر الأبراج في الواقع، ماهو إلا ظنونٌ وأوهامٌ وتخاريف. وذلك لسببين رئيسين، الأول منهما أن حساب الأيام والسنين التي نعرفها، تغيَّر عدة مرات! وتم إسقاط أيام من الزمان على عهد يوليوس قيصر، وبعده بأكثر من ألف عام على يد البابا جريجوريوس الذي أسقط عشرة أيام كاملة من حياة الناس فيما يعرف بالإصلاح الجريجوري للتاريخ. ولذلك، نرى الكاثوليك يحتفلون بميلاد المسيح يوم 25 ديسمبر من كل عام، في حين يحتفل به الأرثوذكس الشرقيون يوم 7 يناير من العام الذي يليه.. وبسبب هذه الفروق الواقعة بين التقاويم وحساب

السنين، نرى مؤرخى الكنيسة يحددون زمن زيارة العائلة المقدسة (السيدة مريم والسيد المسيح والسيد يوسف النجار) إلى مصر هربًا من الرومان، بالسنة الثالثة قبل الميلاد، أى قبل ميلاد المسيح نفسه !.. وما يعنينا هنا الآن هو أن الدائرة التى تضم الزمان الذى اخترعناه لتنظيم أمور حياتنا، تحركت قليلًا إلى الوراء، وتزحزحت للخلف، فلم يعد ما فوقها من (الأبراج) مرتبطًا بها.

والسببُ الآخر الداحض لخرافة الأبراج وقراءة الطالع، هو سببٌ علميٌّ بحتٌ. فالمعروف اليوم أن حركة الفلك عمومًا تتقدم بمقدار درجة واحدة إلى الأمام كلَّ واحد وسبعين سنة. والدرجة الفلكية تساوى يومًا واحدًا من أيام الناس؛ وبالتالى فقد تحركت الدائرة الكبرى (فلك البروج) خلال الألف والأربعمائة سنة الأخيرة، بمقدار عشرين يومًا نحو الأمام! وقد رأينا (الإصلاحات) التى جرت على التقاويم، وتحركت دائرة الأيام والشهور بمقدار أسبوعين نحو الوراء !

إذن، لا ارتباط حاليًّا بين الدائرتين؛ إذ إن مواليد هذا البرج أو ذاك، يقعون فى حقيقة الأمر تحت البرج الذى قبله.. وبالتالى، فلا معنى لاستطلاع الغيب برصد النجوم لمعرفة (الطالع) ولا دليل على صحة أبواب (حظك اليوم) أو كتب (الأبراج) أو مسامرات الطبائع الترابية والمائية والهوائية والنارية، إلا أوهامنا وميلنا للخرافة.. الخرافة التى صارت اليوم تجارة للمتلاعبين بالعقول.

19 بابل

سألنى صاحبى إن كنت قد شاهدت فيلم الممثل الشهير براد بيت، الذى عنوانه: بابل؟ فأجبتُ بالإيجاب، إذ كنتُ قد شاهدته قبل عرضه فى دور السينما، وأُعجبت به. قال صاحبى إنه أُعجب أيضًا بالفيلم، لكنه لم يفهم السر فى اختيار بابل، عنوانًا له! فأفهمته أن الفيلم الذى تدور أحداثه فى ثلاثة أماكن متفرقة، عبر ثلاث قصص تبدو أول الأمر متباعدةً ومختلفة، ولا ترتبط ببعضها إلا فى نهاية الأحداث، حيث نعرف أن المرأة التى لقيت مصرعها فى بداية الفيلم، برصاصة طائشة أطلقها شابٌّ يافع من دون قصد القتل، على أوتوبيس سياحى بالصحراء المغربية (غالبًا فى الجزائر) فانهارت أسرته، وقُتل أبوه لاحقًا برصاص البوليس؛ كانت امرأة غربية (أمريكية) تزور تلك النواحى مع زوجها، الممثل براد بيت، ضمن رحلة سياحية. وكانت (البندقية) التى أطلقت العيار الطائش، مملوكة لرجل من اليابان، تعانى ابنته من التحلُّل الذى أصاب المجتمع اليابانى، حتى انتهت حياتها بالانتحار.. وطيلة الفيلم، نجد الأسر الثلاث التى تدور حولها الأحداث، تتكلم اللغات: العربية، الإنجليزية، اليابانية. كُلٌّ منهم بلغته، ومن ثم فإن الفيلم يستعير المفهوم التوراتى لاختلاف ألسنة الناس، من يوم غضب الرب على الإنسان أيام برج (بابل) الشهير.. تقول الآيات التوراتية، ما نصه:

وكانت الأرضُ كلها لسانًا واحدًا ولغةً واحدةً، وحدث فى ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك، وقال بعضهم لبعض: هلمَّ نصنع لبنًا ونشويه شيًّا. فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الجمر مكان الطين. وقالوا:

هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هو ذا شعبٌ واحدٌ ولسانٌ واحدٌ لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض؛ ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض.. (سفر التكوين، الإصحاح الحادى عشر).

وعلى هذا النحو، وبدلًا من النظريات الكثيرة فى نشأة اللغات، تقدم لنا التوراة إجابةً واحدةً، يتقبلها كُلُّ مَنْ يؤمن بالعهد القديم، باعتبارها التفسير الوحيد لاختلاف ألسنة الناس وتعدد لغاتهم. وبالطبع، فلا عبرة هنا ولا اعتبار لطبيعة هذا (الرب) الذى يحنق على (الإنسان) ويغيظه أن البشر سوف يبنون حضارة كبيرة ومدينة هائلة تجمع كل شعوب الأرض فى مكان واحد، فيحتال كى يمنعهم من ذلك، بأن ينزل إلى الأرض ويبلبل ألسنتهم، فلا يتفاهمون فيما بينهم، ومن ثم يتفرَّقون فى الأرض ويتبدَّد شملهم، وتظل مدينتهم (رمز حضارتهم) غير مكتملة، ويصير اسمها من يومها: بابل.. وأيضًا، لا اعتبار هنا ولا عبرة بالجهود الجبارة التى بذلها اللغويون القدامى والمعاصرون، من أجل تعليل اختلاف اللغات عن بعضها، والصلات المشتركة بين مجموعة معنية منها.

والأهم من ذلك كله، أنه لا عبرة فى الفيلم بالقصة التوراتية ذاتها! وإنما المراد إحياء التصور التوراتى، باقتطاف رموز منه وإدماجها فى سياق آخر.. تمامًا، مثلما فعل اليهود حين أطلقوا على عملية ضرب لبنان الأخيرة، اسم علامة قايين. وكما ذكرنا من قبل، فإن هناك علامةً أخرى فى التوراة، جعلها الرب حمايةً لرجل اسمه (لامك) كان قد قتل اثنين من الناس، فجعل الرب له علامة: من يقتل لامك، يُقتل منه سبع وسبعون! وبالتالى لم يجرؤ أحد، بحسب التوراة، على قتل لامك.. وهنا نكرر الدعاء: اللهم ارحمنا برحمتك، واحفظنا من عمليةٍ إسرائيلية عسكرية، على غرار (علامة قايين) قد يكون اسمها هذه المرة: عملية علامة لامك.

20 خِتَـــانٌ

فى السنوات الأخيرة، تثور قضية ختان الإناث حينًا، وتهدأ أحيانًا، ثم لا تلبث أن تُثار ثانيةً كلما لعبت (الميديا) فى عقول الناس، بأن تذيع محطة CNN مشهدًا مروعًا لختان بنت، أو تثير الدكتورة (المعروفة) هذه القضية فى إحدى وسائل الإعلام الأجنبية، أو يتطوَّع أحد (المفكرين الإسلاميين) ببيان موقف الدين من هذه القضية، مؤكِّدًا أن الإسلام يقف فى صف المرأة! فيرد عليه مفكرونا (العلمانيون) بتأكيد أن الإسلام لا يقف فى صف المرأة، فيجد (المعتدلون) الفرصة للإدلاء برأيهم المعتدل عن حقوق المرأة فى الإسلام.. ويهدأ الموضوع الأصلى، حينًا، ثم يطفرُ خبرٌ أو تنكشف واقعةٌ، أو تتحذلق إحدى المذيعات الجدد، فيثور من جديد موضوع (ختان الإناث) وتثار توابعه التى ذكرناها، مرةً أخرى. ولسوف يبقى الحال على ذلك، فيما أظن، خلال السنوات التالية أيضًا؛ فقد اعتدنا أن ندور دومًا فى الحلقات المفرغة، أملًا فى أن نملأ بذلك فراغنا، فيجرُّنا الفراغُ إلى مزيد فراغ.

وبالطبع لم يخطر ببالنا أن نتعرض يومًا، ونحن نغوص فى مخاضة الكلام عن الختان، إلى مسألة (ختان الذكور) مع أنها ترتبط بالأنثى بأكثر مما نظن.. ولم يخطر ببالنا أيضًا، أن نبحث الصلة بين كلمتىْ الختان والطهارة، أو نحاول فهم السرِّ الذى من أجله نقول عن الذى اختتن، إنه: تطاهر ؟ وما السبب فى إتيان هذا الفعل أصلًا.. وفى ذلك كله نقول فيما يلى، وبالله التوفيق :

الختانُ عادة مصرية قديمة جدًّا، بدأت فى الأزمنة التى كان المصرى القديم يعتقد فيها، بألوهية إسِّت (إيزيس) التى هى الأنثى الخالقة من غير ذَكَرٍ. وفى هذا

الزمن السحيق، كانت الغالبية العظمى من الجماعات الإنسانية المتحضرة، تعبد الأنثى الخالقة! فهى الإلهة التى تسمَّى فى سومر (ننخرساج). وهى فى سومر المتأخرة وبابل المبكرة (عشتار). وفى بابل وأشور (إنانا) وذلك نظرًا لتداخل المعتقدات بين الحضارات المتعاقبة التى ورثت بعضها بعضًا. ومن اللافت للنظر، أن كل الحضارات القديمة التى عاشت حينًا من الدهر فى هذه المنطقة من العالم، كانت كلها فى ابتداء أمرها تعبد الأم العظيمة أو الأنثى المقدسة، التى هى فى مصر واليونان (إيزيس). وفى سوريا القديمة والعراق (تعامة) التى صاروا يكتبونها اليوم (تياما) نقلًا عن اللغات الأوروبية.. حتى العرب (قبل الإسلام) عبدوا آلهةً إناثًا، اشتهر منهن الثلاثة اللواتى ورد ذكرهن فى القرآن الكريم: اللات، والعُزَّى، ومناة (الثالثة الأخرى).

ومنذ زمن موغل فى القدم، اعتقدت الإنسانيةُ أن النساء هن صورة (الربة) فى الأرض، ومن ثَمَّ فهن مقدسات.. مقدسات لأنهن يلدن، ويسيل منهن دم الحيض (والدم مقدَّس عمومًا عند الإنسان القديم) ويشبهن تمثال الإلهات اللاتى كن يعبدنها. ومن هنا، جاءت فكرة أن الرجل كى يضاجع الأنثى، التى هى صورة الربة فى الأرض؛ فإن عليه أن يتطهَّر ليتأهَّل لإتيانها، وذلك يقتضى أن يضحى بجزء من أكثر مواضع جسمه حساسية، وهو (القَلَفة) المحيطة برأس العضو الذكرى.

وإذا قُطع من ذَكَرِ الذَّكَر هذا الجزء المسمى (القلفة) كان على شكل حلقة.. وقد كانت هذه الحلقات (الذكورية) توضع فى خيطٍ، فتكون على شكل عقد يزيِّنون به عُنق تمثال الإلهة فى المعابد. وهكذا يصير الرجل (طاهرًا) ومؤهلًا لمضاجعة أية واحدة من النساء، اللواتى هن صورة الربة أو المرأة المقدسة أو الأم الأولى.. وينبغى أن نلاحظ هنا أن كلمة المرأة فى اللغة العربية لا تجمع، وكلمة النساء لا مفرد لها! لأن المرأةَ واحدةٌ باعتبارها الأنموذج المعبود، بينما النساءُ كثيراتٌ لأنهن صورة الإلهة.

وعن المصريين القدماء، والبابليين، أخذ اليهود طقس الختان. وأخذناه نحن المسلمين من اليهود، فى حين أعفى السيد المسيح (عيسى، يسوع) المسيحيين من هذه التضحية، على اعتبار أنه سيضحى ببدنه كاملاً، لخلاص الإنسانية.

وأخيرًا، أرجو من (المفكرين الإسلاميين) أن يكفوا حين تثور المرة القادمة قضية ختان الإناث، عن قولهم إن الإسلام لايدعو إلى الختان؛ فقد كانت عادة الختان منتشرة بالمنطقة قبل الإسلام، وبعده. وفى أصل اللغة العربية، يُقال عن المصاهرة (مخاتنة) ويُسمى عضو الرجل وفرج المرأة، كلاهما: ختن.. وفى الحديث الشريف: إذا التقى الختانان وجب الغُسل!

21 سَبَهْلَلَة

يعتقد معظم الناس أن هذه الكلمة عامية، بل مغرقة فى العامية. وقد كنتُ أعتقد ذلك أيضًا، حتى صادفتنى الكلمة فى حديث شريف، فعرفت أنها كلمةٌ فصيحةٌ موغلةٌ فى الفصاحة! الحديث الشريف يقول ما نصه: لايجيئنَّ أحدكم يوم القيامة سبهللا.. ولم ينفرد هذا الحديث النبوى بذكر هذه الكلمة، وإنما وردت أيضًا فيما لاحصر له من سياقات عربية مبكرة، منها ما أوردته المصادر العربية القديمة، فى كلام عمر بن الخطاب، قوله: إنى لأكره أن أرى أحدكم سبهللا، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة.. يقصد أنه لايقوم بعمل نافع لدنياه، ولا لدينه.

الكلمة إذن فصيحةٌ قديمةُ الاستخدام، وقد توقف عندها علماء اللغة العربية وشرحوا معانيها. ومن هذه المعانى نعرف أن (السبهلل) هو وصفٌ للشخص الذى لايعمل شيئًا ذا بال، ومع ذلك يبدو نشيطًا فرحًا مختالًا فى مشيته، بينما هو فارغٌ، ضالُّ الاتجاه لايدرى إلى أين يتوجه. والسبهللة فى فصيح اللغة أيضًا: الضلال والدلال والتبختر، مع خلو البال والفراغ.

وليس مقصدى هنا، فقط، شرحَ هذه الكلمة وبيان معانيها وارتباط الفصحى والعامية فيها. وإنما مرادى، أيضًا، تبيان أن السبهللة، قديمًا وحديثًا، قد تكون نهجًا فى الحياة؛ وهو النهج الذى عُرف قديمًا بوصف: عَيْشِ السبهللة! ويعرف اليوم بأسماء كثيرة، بعدما صارت السبهللة نهجًا لكثير من الناس فى بلادنا، أو بالأحرى صارتً نهجًا لأغلب الناس. ولولا قلة من أشخاص محددين أعرفهم، لقلتُ إن السبهللة هى (منهج) كل الناس فى كل أنحاء بلادنا. وهناك أدلةٌ على ذلك، منها

أننا صرنا ننفق على فواتير التليفون المحمول، أكثر مما تنفقه الدولة على التعليم؛ وهذه سبهللة. ومنها أننا ننفق على الدروس الخصوصية التى تسطح العقول أكثر مما ننفق على تثقيف أولادنا وترقية عقولهم، وهذه سبهللة. ومنها أننا نُعنى بتوافه الأمور، ونتعارك حولها حتى تذهب ريحنا بددًا، بدلًا من الاستجابة للمؤشرات القوية الدالة على انهيار أحوال هذا البلد، وهذه سبهللة. ومنها أننا نعرف أن العالم يتغير بسرعة، ومع ذلك لا نفكر أبدًا فى تغيير أنفسنا، وهذه سبهللة. ومنها أننا نقيم الدنيا ولا نقعدها؛ لأن مذيعة تلفزيونية يتهمونها بتزييف الزيف الذى نعيش فيه، أو لأن ممثلة مغمورة خلعت حجابها وعادت إلى عالم الفن؛ بينما لا نهتم بمعرفة المقدار الحقيقى لديون مصر الخارجية، وكأن أحدًا سوف يسدِّدها عنا يومًا.. وهذا عينُ السبهللة.

ولست هنا بحاجة لإيراد هذه الأمثلة التى لاتنتهى، والتى تؤكد أننا جميعًا، إلا قلة من الأفراد، نعيش عيش السبهللة. والعجيبُ أننا مع ذلك كله، لانزال متفاخرين بأنفسنا، بل مختالين. ولانجد بأسًا فى أن نردِّد أغنية: (المصريين أهمَّه) إذا أحرز فريقنا هدفًا فى مباراة، وكأن مصر صارت بلدًا للهَدَّافين! مع أن أغلب الناس يعيشون بلا هدف، وبلا إدراك لأهمية (الأهداف) فى الحياة. وهذا، فى واقع الأمر، هو المفهوم الدقيق للسبهللة والوصف الجامع للسبهلليين، المستهبلين، المعتقدين أن أمور هذا البلد يمكن أن تنصلح، من دون أن يفيق الناس من حالة السبهللة المزمنة التى انتشرت بينهم كالوباء، من دون أن تهتم بها وزارة الصحة، مثلما تهتم موسميًّا بإنفلونزا الطيور وبجنون المواشى.. والحال ماشى.

22 السَّيْفُ

فجأة، انتشرت بين ديارنا ظاهرةٌ لافتةٌ للنظر، ومثيرةٌ للقلق فى الآن ذاته. ففى الفترة الأخيرة، صرنا نشاهد ملصقات تملأ الزجاج الخلفى للسيارات (الملاكى) عليها عبارة التوحيد: لا إله إلا الله، وتحتها سيفٌ يمتد بطول عبارة التوحيد، التى تبدو كأنها ترتكز على شفرة السيف العليا.. وهم يسمون الواحدة من هذه الملصقات، باللفظ الأجنبى: استيكر. ولا أظن أن واحدًا منا، لم يشاهد هذه السيارات التى تجوب الشوارع، حاملة هذا الإعلان الدال على أن صاحب السيارة (مسلم) وأنه متمسكٌ بعقيدته.

العجيب، أن هذه (الاستيكرات) ممنوعةٌ بحسب قانون المرور، أيًا كان ما هو مكتوبٌ بها أو مرسومٌ عليها. ولكننا فيما يبدو، تغاضينا عن تطبيق القانون فى هذه الحالة. مثلما نتغاضى عن تطبيقه مع تلك اللوحات المعدنية التى صرنا نراها على كثير من السيارات، وقد كتب أصحابها أرقام السيارة بشكل دقيق لا يمكن قراءته. وبعضهم يضع نسرًا كبيرًا مع تلك الأرقام المنمنمة للسيارات، حمايةً لها من (مضايقات) رجال المرور، ودلالةً على أن صاحب السيارة من الشخصيات التى هى فوق القانون.. وما علينا الآن من هذه اللوحات المعدنية، التى تستفزُّ الذين يعتقدون أننا نعيش فى دولة القانون؛ فالأكثر خطورةً منها واستفزازًا هو تلك (الاستيكرات) التى ذكرناها أولًا، والتى تثور معها عدةُ أسئلة:

هل يمكن أن نسمح (أيضًا) للإخوة المسيحيين فى مصر، بأن يضعوا على زجاج سياراتهم (وهم بالقطع لديهم سيارات ملاكى كثيرة) علامة الصليب. وأن

يضعوا تحتها مدفعًا رشاشًا، أو خنجرًا صغيرًا، أو حتى أحد الأمواس التى تحلق اللحى؟ بالقطع، لا يمكن أبدًا أن نسمح بذلك. ومادام ذلك غير ممكن (أبدًا) فلماذا نسمح لأنفسنا، نحن المسلمين، أن نميز أنفسنا بأمرٍ غير متاح للآخرين منا نحن المصريين.. هذا سؤالٌ، وهناك سؤالٌ آخر أهم:

لماذا نحرص على وضع السيف بالذات، تحت عبارة التوحيد؟ هل هو محاولةٌ للإدانة الذاتية، وإعلانٌ عن كوننا، نحن المسلمين، لا نفصل بين الدين المتمثل فى عبارة التوحيد، والسيف الذى هو عنوانٌ على العنف والقتل وسفك الدماء؟ صحيحٌ أن السيف ممدوحٌ فى تراثنا القديم، ابتداءً من مدح خالد بن الوليد بأنه سيف الله المسلول، ومرورًا بمطلع قصيدة أبى تمام الشهيرة (السيف أصدق أنباءً من الكتب) وانتهاءً بأعلام المملكة العربية السعودية الإسلامية الشقيقة التى تضع السيف شعارًا لها.. غير أن السيف الممدوح يبقى من بعد ذلك كله علامةً على العنف، ومثيرًا لهذه التهمة التى يحرص المسلمون على إنكارها. أعنى تهمة انتشار الإسلام بحدِّ السيف! وإذا كان المسلمون ينكرون مثل هذا الاتهام، ويحرصون دومًا على تكذيبه؛ فما معنى الجمع بين السيف وكلمة التوحيد، على زجاج سياراتنا الجوالة فى الشوارع؟ وما هو المقصود بالضبط، من إشهار هذه السيوف فى وجه الناظرين؟.. وبعد هذا السؤال، سؤالٌ آخر:

كيف لنا أن نثور مؤخرًا على (بابا) الفاتيكان؛ لأنه ذكر فى معرض كلامه بمحاضرة محلية، أن الإسلام انتشر بحد السيف. ومن بعد تلك الثورة وذلك الهياج، نضع السيف على زجاج سياراتنا.. أوليس فى ذلك خَبَلٌ وتناقضٌ؟ ومعروفٌ فى التاريخِ الإسلامى أن الدين دخل بلادًا كثيرة صلحًا، ودخل بلادًا كثيرة فتحًا وعنوةً. أى أن الفاتحين استخدموا السيف، وافتخروا باستخدامه فى الفتوحات. وقد قال القرآن الكريم فى خطاب الله للنبى صلى الله عليه وسلم: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾** وقال: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..﴾** (أى يطعن بالسيف).. فهل نُنكر مسألة ارتباط الدين بالسيف، أم

نؤكِّدها بالإعلان عن ارتباطهما على زجاج السيارات الملاكى، التى يجوب بها المسلمون الشوارع ؟

وسؤالٌ أخير.. إذا كان الدين الإسلامى يدعو للسلام، بأكثر مما يدعو للحرب، وهو ما يظهر فى آيات قرآنية كثيرة؛ فلماذا لا نستمسك اليوم بما هو سلمىٌّ، مادمنا لا نستطيع الإمساك بناصية الحرب؟ وإذا كان السلام الاجتماعى هو أحد أهدافنا الكبرى فى هذه المرحلة الحرجة التى تمر بها بلادنا (التى معظم مراحلها التاريخية حرجة!) فلماذا لا يدعو الآباء أبناءهم إلى إزالة هذه الاستيكرات المستفزة المخالفة للقانون؛ مادام وزير الداخلية لا يأمر ضباطه القائمين على أمر (المرور) بنزعها من فوق الزجاج الخلفى لسياراتنا، ومن أمام أعيننا فى كل الشوارع؟

23 استعمار

رأيت فى عيون الحاضرين استغرابًا ودهشة، حين ألقيتُ بحثى فى مؤتمر: فلسفة العمارة الإسلامية، الذى اختتمت به مدينة حلب السورية برنامجها الحافل بمناسبة اختيارها عاصمةً ثقافية للعالم الإسلامى، للعام الميلادى 2006 (من دون اهتمام بما يقابله من السنوات الهجرية).. وكان بحثى فى المؤتمر بعنوان: التطور الدلالى لكلمة العمارة فى الثقافة العربية. وقد كان استغرابُ الحاضرين ودهشتهم، لأننى قلتُ فى البحث إن اللغة العربية لم تعرف المعنى الذى نقصده الآن بكلمة العمارة! وإن الكلمة لها معانٍ أخرى خلال تطورها الدلالى فى ثقافتنا. ولهذا الأمر تفصيل، يمكن إيجازه فى الآتى:

العمارة كلمة قرآنية وردت فى عديد من الآيات، وأفاضت فيها معظم المعاجم العربية والقواميس المشهورة ابتداءً بأول وأقدم معجم للألفاظ العربية وهو (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدى، المتوفى سنة 175 هجرية. وحتى آخر الأعمال الكبرى فى هذا المجال، وهو الكتاب الموسوعى الضخم (تاج العروس من جواهر القاموس) لمرتضى الزبيدى، المتوفى سنة 1205 هجرية.. وفى هذه المتون كافة، تحمل كلمة العمارة الكثيرَ من المعانى والدلالات، لكنها كلها تخلو من المفهوم الذى نستخدم به الكلمة اليوم؛ أعنى التعريف المعاصر لها، وهو التعريف الذى يقول: العمارة هى الفن أو العلم الذى يُعنَى بتشييد المبانى من أجل الاستخدام الآدمى، وهى فن من الفنون الجميلة، وقد تستخدم بمعنى البناء المادى أو النظرى.. وفى واقع الأمر، فهذا التعريفُ هو ما ورد فى قاموس أكسفورد الإنجليزى! أما فى متون لغتنا العربية، فقد ورد الآتى:

تعنى كلمة العمارة فى القرآن الكريم: الزيارة، والسكنى المؤقتة فى مكان. وهى لا تستخدم أبدًا، بمعنى البناء والتشييد وزخرفة المبانى. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. وهى هنا بمعنى زيارة المساجد والتردد عليها. ومن ذلك أن زيارة البيت الحرام بمكة فى غير أوقات الحج هى عمرةٌ. ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إشارة إلى الإقامة المؤقتة فى الأرض، وهى إشارة إلى أمرٍ إيجابى، هو الاستعمار المشتق من فترة (العمر) حيث إن الكلمة مأخوذة أصلًا من الجذر اللغوى (عمر) بمعنى عاش زمنًا محدودًا.

هذا فى الآيات القرآنية، أما فى القواميس العربية المشهورة، فالعمارة هى: القبيلة العظيمة (كتاب العين) وهى: الحىُّ الذى يقوم بنفسه، والعشيرة الأصغر من القبيلة (لسان العرب) وهى: لزوم البيت، وقولهم: عمر الله منزلك، وأعمره، أى جعله آهلًا (القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لكلام العرب شماميط، للفيروزآبادى). . هذا كله إذا كانت الكلمة بكسر حرف العين، أما إذا كان الحرف مفتوحًا، فالعمارة تعنى: كل ما يوضع على الرأس كالعمامة! وتعنى: التحية. . وإذا كان الحرف مضمومًا، فالكلمة تعنى: أجر السكن فى مكان (تاج العروس).

وقد ابتكر ابن خلدون، علم العمران، الذى عَرَّفه بأنه: التساكن فى مكان للأنس بالعشيرة ولاقتضاء الحاجات، لما فى طباع الناس من التعاون على المعاش. . فهو إذن يقصد، ما نسميه اليوم علم الاجتماع؛ وليس العمارة بمعنى الإنشاء والتشييد والزخرفة و هندسة العمارات.

لقد طفر المعنى الحالى للعمارة فى لغتنا، فجأة، بسبب تأثير اللغة التركية التى تسمى المهندس بكلمة: المعمار، فصرنا نسمى البنَّائين: طايفة المعمار، ثم صرنا نُسمى المحتل: المستعمر، ونُسمى مَصَّ الشعوب القوية لدماء الشعوب الضعيفة: الاستعمار. . وغير ذلك من الدلالات المعاصرة التى لا تتوافق مع التاريخ الدلالى للكلمة.

24 غـــرام

فى كلامنا اليومى، صارت كلمة الغرام مرادفة للحب، ليس فى كلامنا العامى فحسب، وإنما أيضًا فى الكلام الفصيح أو المتفاصح؛ فقد صرنا نقول (خطابات غرامية) قاصدين بذلك رسائل المحبين، ونقول للمحبوبة (يا غرامى الوحيد) قاصدين أنها الحب الأوحد.. والمسائل العشقية نسميها: غراميات، والفيلم الشهير عنوانه: غرام وانتقام، والأغنية الشهيرة تقول: الناس المغرمين، ما يعملوش كده!

وعلى هذا النحو راحت الكلمةُ تجرى على ألسنتنا، حتى راجت فى لغتنا خلال الخمسين سنة الأخيرة بهذا المعنى المحدد، فصار معناها المشهور على الألسنة من البديهيات، مع أن الغرام أصلًا هو العذابُ الشديد! والقرآن الكريم يقول عن جهنم ﴿.. **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾.. والأصل فى الكلمة، هو: الغرم. وهو حسبما يقول علماء اللغة من أمثال ابن منظور والفيروزآبادى ومرتضى الزبيدى، كُلٌّ فى معجمه: الغُرم هو (الدَّيْن) والغارم هو الذى عليه دَيْنٌ أو ديةٌ، والغريم الذى له الدين والذى عليه الدَّين، فكلاهما غريمٌ للآخر! والغرام هو اللازم من العذاب والشر الدائم، وقد أُطلقت الكلمة أول الأمر، بشكل مجازى، للتعبير عن العشق والهوى والولع، ثم انقلب المجاز أصلًا للمعنى، فلم نعد ندرك المعنى الأصلى من الكلمة.

وقد يقول قائل: إن الكلمات قد تتغير معانيها، أو ينقلب المعنى فيها حتى يتحوَّل من الضد إلى الضد، أو تختصُّ بمعنى واحد (مجازى) وتندثر دلالاتها الأخرى. وهذا قولٌ صحيح من الناحية النظرية، ولكن عملية التحول الدلالى

هذه، من المفترض أن تستغرق سنوات طوالًا، ولعلها لا تتم إلا فى مئات السنين. أما أن يطفر، فجأة، معنى جديد للكلمة، من دون ذلك التحول التدريجى، خاصةً مع كون هذه الكلمة قرآنيةً، فإن الأمر ينطوى على خطرٍ دلالى؛ فهذه الكلمة وغيرها كثيرٌ من الكلمات، صرنا فجأة نستخدمها فى غير المقصود منها؛ وهذا خللٌ أراه خطيرًا؛ لأن اللغة التى نتداولها مالم يكن لها ضابطٌ، فلا ضابط للمعانى ولا الأفكار. ولو صار للكلمات فى كل فترة معانٍ متضاربة، لتضاربت أغراضنا ومرامينا، وصارت اللغة وسيلة تشتيت، بدلًا من أن تكون وسيلة تواصل.

على كل حال، فإننا نصف فى كلامنا اليومى الشخص الماهر بأنه (شاطر) فدعونا نتوقف عند هذه الكلمة قليلًا.. الشاطر فى اللغة العربية هو الشخص الذى يأخذ نحوًا بعيدًا عن الاستقامة والاستواء، ولذلك قيل له (شاطر) لأنه تباعد عن الاستواء. هذا ما يقوله ابن منظور فى لسان العرب، أما الفيروزآبادى صاحب القاموس المحيط، فيقول مانصه: الشاطر هو مَنْ أعيا أهله خبثًا.

وبعيدًا عن الدلالة المعجمية لكلمة الشاطر، سوف نجد اللفظة، وقد ظلت تُستعمل حتى عصر قريب، بمعنى قاطع الطريق ومحترف السرقة والنهب. وهناك مبحث كامل عنوانه: العيَّارون والشطار فى العصر المملوكى والعثمانى. حيث كان يوصف بذلك، الخارجون عن القانون.

وفجأة، صار الشاطر يعنى الماهر! وانقلبت دلالته إلى الضِّدِّ، مثلما انقلبت دلالات كثيرة اليوم، فصار (أولاد الناس) يُقصد بهم علية القوم، مع أن المقصود بذلك أصلًا، جماعة المماليك والمرتزقة الذين لايُعرف لهم أب. وصارت القهوة تعنى مشروب البن، مع أن معناها الأصلى فى اللغة العربية هو الخمر. وقد سُميت الخمر قهوة؛ لأنها تُقهى شاربها عن الطعام أى تذهب بشهوته، باعتبارها أن (قها) تعنى انسدت نفسه عن الأكل. وهناك ما لاحصر له من الأمثلة الدالة على الانقطاع فى المعنى، وعلى الانقلاب الدلالى. وهو الأمر

الذى أراه خطيرًا على الوعى العام باللغة، وعلى التواصل مع الموروث.. ومع ذلك فلا أحد يهتم به.

وكما أشرنا مرارًا، فقد عَرَّف العلامة ابن جنى اللغة فى كتابه (الخصائص) بأنها: أصواتٌ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.. فإذا زادت هذه الفوضى الدلالية، انتفت (الأغراض) التى تقوم اللغة بتوصيلها، وصرنا بلا أغراض، وبلا تواصل، وبلا لغة، وأخذنا من بعد ذلك نتباكى على ضياع لغتنا الجميلة، ونذرف الدمع الغزير على اندثار اللغة التى نحن بها مغرمون! مع أن: الناس المغرمين ما يعملوش كده.

25

أكـاديمـيـة

من الكلام العربىّ ما هو فى أصل اللغة، ومنه ما هو معرَّب. والمقصود بالمعرَّب هو اللفظ الذى دخل إلى اللغة العربية، واستقر فيها، فصار كأنه منها.. وبالمناسبة، فإن كلمة (المعرَّب) هى عنوانُ كتابٍ شهيرٍ فى اللغة، لأبى منصور الجواليقى. المهم أن كلمة أكاديمية هى من الكلمات المُعرَّبة، وهى ذات أصل فى اللغة اليونانية. ولهذا الأصل (أصلٌ) فى التاريخ اليونانى، سنورد فيما يلى بيانه، ومن بعد هذا البيان سيأتى التبيان الذى نهدف إليه.

أما الأصل فى التسمية، فهو يعود إلى زمن الفيلسوف اليونانى الشهير أفلاطون الذى بدأ أشهر عملية تدريس نظامية فى التاريخ؛ إذ كان الفلاسفة والعلماء من قبله، يعلِّمون تلامذتهم على نحو عشوائى، أو على نحو سرِّىّ فى المعابد. والمشهور فى الكتب المدرسية، أن أفلاطون كان أول من أنشأ مدرسة نظامية. وفى الحقيقة فإن فيثاغورس كان قد أنشأ من قبله مدرسة فى جزيرة ساموس، لكنه سمح للنساء بالانضمام بين صفوفها، فأحرق أهل الجزيرة المدرسة، وطردوا فيثاغورس؛ لأنه بحسب اعتقادهم كان يسقى الأفعى سُمًّا؛ ومن ثم، فقد تفرَّقت الفيثاغورية، وصارت مذهبًا شبه سرِّىٍّ.

أما المدرسة التى أنشأها أفلاطون، فقد تمتعت بالشرعية، واستمرت قرونًا من بعده. وكان اسمها (الأكاديمية) لأنها ببساطة شديدة، كانت فى الأصل حديقة باسم بطل أسطورى يونانى قديم، هو أكاديموس.. وكما أسلفتُ، فقد كانت الدراسة الفلسفية فى أكاديمية أفلاطون دراسةً نظاميةً لها أصول وقواعد، منها

مثلًا أنه كان لا يقبل فيها إلا الذين تلقَّوا قبل التحاقهم بها قدرًا من العلم، خاصة الرياضيات. وقد نقش أفلاطون عبارة على باب المدرسة تقول: لا يدخل علينا، مَنْ كان جاهلًا بالهندسة.

وفى هذه المدرسة الأفلاطونية، الأكاديمية، درس أرسطو وتخرج، ثم أنشأ من بعد ذلك مدرسته الخاصة فى أثينا، وهى المدرسة التى عرفت باسم اللوقيون، وقد سماها العرب: المدرسة المشائية؛ لأن أرسطو كان يلقى دروسه، وهو يمشى بين تلاميذه جيئة وذهابًا فى حديقتها. . ثم كثرت المدارس فى أثينا وروما والإسكندرية، وانتشرت هذه الظاهرة (التدريس النظامى) فى العالم القديم والوسيط، خاصةً بعدما توسَّع العرب المسلمون فى إنشاء المدارس بالمدن الكبرى، وأنشئوا فى القرى الكتاتيب. وقد صارت بعض هذه المدارس العربية القديمة بمثابة جامعات كبرى، مثل المدرسة النظامية التى أنشأها الوزير (نظام الملك) فى بغداد القديمة. وقد استعرض النعيمى نماذج كثيرة من هذه المراكز التعليمية العربية والإسلامية فى كتابه: الدارس فى تاريخ المدارس.

أما الجامعات بالمعنى الحديث للكلمة، أعنى المعنى الأوروبى، فقد ابتدأت فى إيطاليا منذ القرن الثانى عشر الميلادى، خاصةً فى مدن: باليرمو، روما، فلورنسا، البندقية (فينسيا). . وأكَّدت هذه المجامع العلمية منذ وقت مبكر النزعة الأكاديمية التى ترسَّخت فى العصر الحديث.

هذا هو بيانُ أصلِ كلمة (أكاديمية) وتطورها الدلالى، أما التبيان الذى نرمى إليه هنا، فهو أن هذه النزعة (الأكاديمية) بمعنى التناول المنهجى والنظامى للمعرفة، صارت فى واقعنا المعاصر حلمًا جميلًا مفقودًا. صحيح أن عندنا عشرات الجامعات، وعشرات الآلاف من المدارس، وملايين من الدارسين والمدرِّسين؛ ولكن لا يوجد بينها منهج ولا نظام. ولا أقصد بالطبع، نظام الامتحانات ومنح شهادات التخرج؛ وإنما أعنى المنهج العلمى الأكاديمى.

وإذا ألقينا نظرة عابرة على نظم التعليم الجارية فى بلادنا، فسنجد لدينا ما

يسمى التعليم (الأزهرى) الذى يقع على الطرف النقيض من التعليم (المفتوح) الذى يخالف التعليم (المقفول) أقصد تعليم الجامعات الحكومية الرخيصة التى تختلف عن التعليم (الغالى) للجامعات الخاصة، والتعليم (المغالى) الذى تقدمه فروع الجامعات الأجنبية فى مصر.. ومن ثم، كاد مفهوم الخريج عندنا يفقد معناه. فهذا الخريج قد يكون شيخًا أزهريًّا معممًا، أو شابًّا مقبعًا بطاقية (نايك) الشهيرة، أو متخلفًا يحمل درجة الليسانس والبكالوريوس.. كُلٌّ بحسب المكان الذى تخرج فيه. وفى غمرة هذا الاضطراب المنهجى فى أصول الأخذ بالمعرفة، ضاعت منا السبل (الأكاديمية) بل ضاعت المعرفة ذاتها. وصار كل منا فى مجال العلم والمعرفة، يُغنِّى على ليلاه! مع أن العلم والمعرفة، لا يعرفان ليلى ولا سعاد. ومع أن الأمة التى لاتُعنى بالتعليم، هى كما قال تقرير ماكنمارا الشهير: أمةٌ فى خطر.

26
أقْــــزَام

كثيرون منا لايعرفون أن مصر القديمة أيام مجدها، كانت وطنًا لجماعات كبيرة من الأقزام الذين وجدوا عند المصريين القدماء، ما يفتقده المصريون اليوم من رحابة صدر ورجاحة عقل واعتراف بالتنوع البشرى الخلاَّق. ولم يجد المصرى القديم بأسًا فى إفساح المجال للأقزام، لكى يعيشوا فى دياره عيشةً آمنة؛ لا لكى يجعل منهم كائنات تتدحرج فى السيرك، من أجل إضحاك الناس. ومع امتداد القرون، تناسل الأقزامُ فى مصر القديمة، وتكاثروا، وشاركوا فى الحياة العامة حتى استطاع بعضهم أن يبلغ مكانةً متميزةً، فصار منهم أفرادٌ مرموقون فى زمانهم، تولوا مناصب إدارية عالية، وأصبحوا فى زمانهم أغنياء. وذلك ما تؤكِّده النصوص المصرية القديمة، وتبرهن عليه تلك المقابر الفخمة التى دُفن فيها أقزامٌ مصريون قدماء، كانوا فى زمانهم مرموقين.

وبطبيعة الحال، كان الأقزام فى مصر القديمة، يشتغلون بالأعمال التى تناسب أجسامهم صغيرة الحجم، وكانوا يعيشون فى جماعات عند أطراف المدن والقرى الكبيرة، ثم اكتسبوا مع طول الزمان هذه الشخصية المرحة والنفسية السمحة التى لاتزال تميز (القلة) من أحفادهم الباقين بيننا إلى اليوم.

وفى الزمن المسيحى لمصر، اختفت الإشارات الدالة على وجود الأقزام، فكأنهم انقرضوا، أو صاروا من الندرة؛ بحيث لم يعد لهم ذكر. وقد كان من المنطقى أن يحدث ذلك لهم فى بلد صار سكانه يعتقدون أنهم أبناء الله، أو خراف الرب، أو الأخوة فى المسيح؛ وهى صفات لاتفسح مجالًا لهؤلاء الأقزام غير المؤهَّلين شكلًا، للدخول مع

الجماعة الواحدة للحصول على عضوية (الشعب) بالمعنى الكنسى للكلمة. . ومن هنا تناقص عدد الأقزام بسرعة، وانعدمت أخبارهم، حتى كأنهم لم يكونوا من قبل.

واستمر الحال ذاته فى الزمن العربى، حتى إننا لا نكاد نجد فى متون التراث العربى المبكر بمصر إشارة إلى هؤلاء (المسخوطين) بحسب المفهوم الدينى الشعبى، إلا على سبيل الكلام عن عجائب المخلوقات وطرائف الموجودات. وقد أسهم الفقرُ والمجاعاتُ، واشتدادُ الأحوال، وانعدامُ الاعتراف بالتنوع الإنسانى فى تأكيد (انقراض) الأقزام.

ومع توالى أزمنة القهر، اكتشف كثيرٌ من الناس فى بلادنا، أن القزمية ليست موقوفة على محدودية حجم الجسم، وأن المجتمع صار لا يستغنى عن وجود الأقزام. فالقزم يلعب دورًا مهمًا فى التوازن النفسى لصاحب السلطة الفارغ، الفارغ. واكتشف الناس فى بلادنا أن ذوى السلطة يحبون أن يكون من حولهم أقزام، يشعرونهم بأنهم متفوقون. . وهكذا عادت (القزمية) وسادت فى ديارنا، ليس على معنى الصفات الجسمية والخصائص السلالية، وإنما بمعنى التصاغر والتضاؤل أمام أىِّ صاحب سلطة! باعتبار أن أىَّ (صاحب سلطة) يودُّ لو كان كل الناس من حوله أقزامًا. . وهكذا صار معظمُ الناس أقزامًا، وصارت للقزمية آداب وتقاليد مرعية، تؤكدها فى ثقافتنا المعاصرة بشكلٍ تلقائىٍّ حكمةُ الأجيال الأخيرة التى صاغتها أمثلة شعبية، من مثل: اللى مالوش كبير يشترى له كبير، اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش، حُطّ رأسك فى وسط الرءوس ونادى عليها بالقطع، يا حيطة دارينى. . وغير ذلك من الأقوال المشهورة والعبارات الجارية على الألسنة، المرشدة إلى السبيل الأكثر أمنًا فى التعامل مع أصحاب السلطة، بالمعنى الواسع للكلمة.

وفى الأزمنة التى عاش فيها الأقزام الحقيقيون بمصر القديمة، كانوا يتمتعون بسمعة طيبة، ولم تكن الثقافة المصرية تزخر بهذه النصائح العامة، والأمثلة الشعبية الموغلة فى القزمية. . ولم تكن البلادُ مملوءةً بالذين تقازموا، ثم تقزَّموا، حتى صار أغلب سكان ديارنا أقزامًا.

27 حَــوَّر

فى مبتدأ الأمر، ظننت أن ابنى علاء هو الذى اخترع هذا التعبير ومشتقاته الكثيرة. ثم عرفت فى الأيام التالية أن أغلب الناس تستعمله، خاصةً الشباب.. وهم منذ بضعة سنوات، يصفون فى كلامهم اليومى (الموضوع الملتبس) الذى فيه من البواطن الخفية مالا يبديه الظاهر، بأنه أمرٌ: فيه حوار، أو: فيه حوارات. ويصفون مخايلة الكلام وعدم الإفصاح، بأن المتكلِّم يحوّر بتشديد الواو! اشتقاقًا من الفعل العامى الجديد حَوَّر، بمعنى لَفَّ ودار.. ثم شاهدتُ بالمصادفة فيلمًا من تلك الأعمال السينمائية الهابطة التى تمتلئ بها دور العرض وشاشات التلفزيون، فجاء على لسان (البطل) الكوميدى، عبارة شديدة العامية والظَّرف، تقول: اللى يحوَّر يتعوَّر.

وبالمناسبة، فالعبارة الهزلية الأخيرة لايتعارض فيها (كثيرًا) الفصيحُ مع العاميِّ؛ ففى فصيح اللغة، نُسمى الشىء الذى يتخذ شكلًا آخر بأنه متحوِّر، ونسمى ما يجب إخفاؤه بأنه عَوْرة. وبالتالى، فقد يصح من حيث اللغة الفصيحة، أن نقول عن المتحوِّرات إن بها عَوْرات! غير أن المراد العامى من العبارة، يظل بعيدًا عن المعنى الذى تقصد إليه الألفاظ الفصيحة، فالمعنى العامى هو أن الذى يلفُّ ويدور ويأتى بالأمور الملتبسة، لابد أن يتأذى ويُجرح (يتعوَّر).. مع أن تاريخ الإنسانية الطويل، لايدل على أن الذى حَوَّر، اتعوَّر؛ فلطالما دار الناس، والتفَّ ذوو السلطان على أهل زمانهم، وحَوَّروا؛ فلم يتعوَّروا!

بعد هذه التمهيدات التى لاتخلو من لفٍّ ودوران حول ما أريد أن أقوله، أو هى بعبارة أخرى: لاتخلو من حوار؛ سوف أعرض ما تثيره الكلمة العامية، بعبقريةٍ، من إدانةٍ غير معلنة لمفهوم الحوار الملتبس.

فى السنوات الأخيرة، كثر فى واقعنا المعاصر الحديث عن (الحوار) حتى لا يكاد يمر يومٌ واحد، من دون أن ينعقد مؤتمر أو ندوة عن: الحوار بين الثقافات.. الحوار بين الأديان.. حوار المشرق والمغرب.. الحوار بين شمال العالم الغنى وجنوبه الفقير.. الحوار بين المذاهب.. إلخ، وكلها فى حقيقة الأمر (حوارات) فيها (حوارات) كما سنرى فيما يلى.

ضرورة الحوار الثقافى.. هذه العبارة الرشيقة المتحضرة التى لايكف مثقفونا عن ترديدها، ويرددها كثيرٌ من متعلِّمى العالم وسياسييه، هى عبارةٌ فيها من الزيف والتحوير شىء كثير. فالثقافة التى هى بحسب التعريف المشهور: الكل المركب من اللغة والدين والتاريخ والعادات والتقاليد، يمكن أن تقوى بقوتها شخصيةُ هذه الجماعة أو تلك، ويمكن فى المقابل أن تكون باهتةً، فتبهت معها الجماعة. ووفقًا لذلك، فإنه من غير المفهوم القول بالحوار بين الثقافات؛ إذ كيف يمكن لهذا (الكل المركب) لهذه الجماعة، أن يحاور (الكل المركب) لجماعة أخرى.. هل ستتحاور اللغات؟ هل ستتحاور التقاليد الموروثة ؟ هل سيتحاور هذا التاريخ الذى كان هنا مع ذاك الذى كان هناك؟

إن حوار الثقافات، ماهو إلا (حوار) بالمعنى العامى للكلمة، يحور به على الناس، ناسٌ لهم فى ذلك مصلحة أو منفعة مؤقتة، أو لمجرد الوجاهة باحتلال الواجهات، وبالمشاركة فى المؤتمرات الداعية إلى حوار الثقافات.. أما (حوار الأديان) وحواراته، فهو يستحق وقفة خاصة.

حِـــوَارُ الأَدْيَـــانِ

لايكاد يمر يومٌ واحد على العالم، هنا أو هناك، من دون أن ينعقد مؤتمرٌ أو تُقام ندوةٌ أو تُنشر مقالةٌ أو تذاعَ مقابلةٌ إعلامية، حول حوار الأديان. والموضوع كله، كما أشرنا من قبل، فيه حوار بالمعنى العامى للكلمة! وبيان الأمر كالتالى:

فى لقاءات حوار الأديان، وأنشطتها الدائمة؛ نرى مشهدًا مهيبًا فى ظاهره.. فأهلونا من المسلمين يمثلهم مشايخ يرفلون فى زيهم الأزهرى السنى، أو فى ردائهم الإيرانى الشيعى؛ بينما إخواننا من المسيحيين يمثلهم قسوسٌ يتأنَّقون فى أزيائهم الكهنوتية الموشاة بخيوط الذهب، حسب المذهب أو (الكنيسة) التى ينتمى إليها الواحدُ منهم. وأبناء العم يعقوب/ إسرائيل، يضعون فوق رءوسهم الكبيرة الطاقية الصغيرة التى تميز اليهود.

وعادةً ما تحفل فعاليات حوار الأديان، بالابتسامات والعبارات المنمَّقة التى تؤكد على نحوٍ قاطع، مفاهيم أقرب إلى (اللافتات) منها إلى الحقائق، مثل: إن الأديان السماوية كلها تدعو للمحبة.. إن التسامح فضيلة أساسية فى الديانات الثلاثة.. إننا جميعًا نعبد الإله الواحد.. إن جوهر الدين الحقيقى هو التسامح والأخوة بين البشر.. إلخ. وقد تتعالى على الألسنة فى هذه الملتقيات مقولاتٌ لامعاتٌ تومض فى أوهام الناس ومضاتٍ مريحة، مثل: الدين لله والأرض للجميع.. تحيا وحدة الهلال مع الصليب.. إلخ.

وما الأمر فى حقيقته، إلا تلبيسٌ ومخاتلة، أو هو بعبارة عامية: حوارات. وإلا، فالأديان الثلاثة السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلام) تقوم أصلًا على إلغاء الآخر، وإعلاء الذات، والنظر إلى الله باعتباره يخصُّ هذه الجماعة بعينها، أو تلك.. فاليهودية بدأت بإله النبى إبراهيم، الذى ظل ينصره على كل الجماعات حتى صار اليهود وحدهم هم (أبناء الله) وما عداهم من وجهة نظرهم: الأمم. ولأن كل الأمم كانت تحتقر اليهود، فقد ردُّوا عليهم باحتقارهم للجميع، باسم الإله: يهوه، إلوهيم، الرب!

وبدأت من بعد ذلك الديانةُ المسيحية بقول السيد المسيح لتلاميذه: إلى طريق الأمم لاتمضوا! ثم إن الأمر تعدَّل ومضت المسيحيةُ، بل توغلت فى طريق الأمم، وصارت بالتبشير ديانةً كبيرةً، أهلها هم: أبناء يسوع الإله الحى، وما الآخرون إلا مجرمون مغضوب عليهم (اليهود) أو ضالون (المسلمون).

وبدأ الإسلام بتأكيد أنه امتداد لليهودية والمسيحية، ثم أكَّدت الآيات القرآنية الكريمة، على نحو قاطع لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ**﴾.. ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾.. ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ**﴾.. ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا..**﴾ وكلها (أصول) دينية وآيات قرآنية، لامجال لإسقاطها أو غَضِّ النظر عنها؛ لأنها تمثل صلب العقيدة، ولأنها مدعومة بنصوص ومفاهيم إسلامية أصيلة، تؤكد أن أهل الإسلام هم: ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.

وعلى هذا النحو، فإن جوهر الأديان (السماوية) الثلاثة، يقوم على إعلاء الذات ونفى الآخر، وإعطاء الحق للمؤمنين وحدهم فى امتلاك اليقين السماوى، ومن ثم حيازة الأرض! فالدين لله، والأرض لأبناء الإله، لأنها أرض الله أصلًا! وحتى بعد هذه الحياة، فإن الجنة لن تسع الآخرين؛ لأنها فى نهاية المطاف جنة الرب، فلا عجب أن تكون للمؤمنين به، تخصيصًا.

وإذا كان كل دين من الثلاثة، على حدة، لم يفلح خلال مئات السنين فى (الحوار) والتوفيق بين المذاهب والاتجاهات التى فيه، والتى يتشكل منها هذا الدين؛ فكيف ستنجح هذه الديانة أو تلك، فى التوافق مع غيرها من الديانات الثلاث.. وإذا كان الأمر كذلك، فأىُّ (حوار) هذا (الحوار) الذى يزعمون؟ وأىُّ سبيلٍ يمكن للناس أن يسلكوه للخروج من هذا المأزق، من دون مداورة ومناورة وحوار؟.. لنتأمل هذه الكلمة:

تَعَايُشٌ

الكلمات العربية التى هى من نوع تعايش، أعنى تلك التى تأتى على الميزان الصرفى تَفَاعُل؛ تُفيد أن الفعل الذى اشتقت منه، يتم عمله بشىء من جهد الفاعل؛ ولذلك يختلف الفهم عن (التفاهم) والسماحة عن (التسامح) والسمو عن التسامى، وهكذا فى بقية الكلمات، فالفهم والسماح والسمو، مصادر أساسية للفعل. والتفاهم والتسامح والتسامى (تفعيلٌ) لهذه المصادر، وتحقيقٌ لها بشىء من المجهود.

وامتدادًا لما ذكرناه من أن حوار الأديان الذى يجرى اليوم، على النحو الذى علمناه؛ نقول: إن البديل الأخير لهذا التحوير هو التعايش بين أهل الأديان. وأؤكد هنا أنه البديل (الأخير) حتى لا يظن أحدنا أننا نملك من ترف الوقت وإمكانية إضاعة الفرص ما يمكن معه أن نجرب هذا الاتجاه، ثم نجرِّب ذاك، فليس هناك (تجارب) حقيقية نافعة فى المجتمعات المأزومة، إلا إذا كانت هذه التجارب مستندة إلى أسس عقلانية مدعومة بخبرات التاريخ.

وقد دلت تجاربُ الأمم على أن أزمنة الصفو الإنسانى كان يسودها الوعى بضرورة التعايش. فعلى سبيل المثال، كان الزمنُ الأندلسى الجميل الذى نعتزُّ اليوم بما بقى منه فى إسبانيا من آثار، وفى أدبنا من أشعار؛ نتاجًا لتعايش أهل الأندلس.. إذ كان المسلمون والمسيحيون واليهود، يتجاورون هناك ويتشاركون، بل يتزاوجون. حتى إننا نجد من الحكام المسلمين آنذاك من يتزوَّج بامرأة مسيحية أو يهودية، فيظل هو مسلمًا، بل حاكمًا للمسلمين، وتظل الزوجة على دينها؛ ومن ثم، يأتى الأبناء متفهمين لكلتا الديانتين.

وبالطبع، فإن مقصدى هنا ليس الدعوة للتزاوج بين أهل الديانات الثلاثة، فهذه مرحلة متقدمة من (التعايش) لم نصل اليوم إلى مستواها الرفيع الذى بلغه أجدادنا وأجدادهم قبل قرون! وإنما هى محضُ إشارة إلى تراثٍ ننتمى إليه جميعًا، ولا يمكن لأحد أطرافه إنكاره.. وهو مجرد مثالٍ دالٍّ على أنَّ التعايش هو نوع

من الحوار الحقيقى، ليس بين الديانات ذاتها، وإنما بين أهل الديانات الذين بلغ بهم الوعى الحضارى إلى الدرجة التى عرفوا معها أن الدين لا يفعل بذاته، وإنما يفعل به أصحابه ما يريدون. وهو المعنى الذى جاء فى العبارة الشهيرة عن القرآن الكريم: هذا الكتاب لا ينطق، وإنما ينطق به الرجال.

القضية إذن، أن أى محاولة لإقامة حوار بين هذا الدين أو ذاك، مقضىً عليها مسبقًا بفشلٍ محتوم. أما تعايش هذه الجماعة مع تلك، وإن اختلفت بينهما الديانات والمذاهب والاتجاهات؛ فهذا هو (البديل الأخير) للجماعات التى تنتمى إلى وطن واحد، أو تعيش فى موطن واحد، ولهذا التعايش أسسٌ قائمة على كلمات تأتى كلها على صيغة (تفاعل).. كلمات من نوع: تفاهُم، تسامُح، تسامٍ، تجاوُر، تواصُل، تثاقُف.. وقد يكون منها (تحاور أهل الديانات) لا: الحوار بين الأديان.

28

كُفْرٌ، وحَرْمٌ، وشَلْحٌ

نستخدم كلمة (كُفر) فى لغتنا اليومية، بمعنى الإلحاد وإنكار حقائق الدين. وفى اعتقاد الكثيرين، يترادف لفظا الكفر و الإلحاد، كما لو كان المعنى فيهما واحدًا؛ مع أن الأمر كما سنرى بخلاف ذلك. فالأصل فى (الكفر) هو الإخفاء والستر والتغطية، وفى القرآن الكريم ﴿.. **أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**..﴾: أى يعجب الزُّرَّاع، لأن المزارع هو الذى (يكفر) البذرة فى الأرض، أى يدسُّها ويغطيها بالتراب. غير أن الدلالة القرآنية للكلمة، تطوَّرت فى المصحف الشريف، فصارت كلمة الكافرين تعنى: نقيض المؤمنين. وهو المعنى المشهور الوارد فى آيات سورة الكافرين: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾.

وبحسب هذه الآيات الأخيرة، فإن الكافرين ليسوا هم الملحدين، إذ إن الكافرين فى الحقيقة: يَعبدون! ولكن لهم عبادة غير تلك التى للمسلمين. ومع ذلك، فإن معنى كلمة (الكافرين) تأكَّد كمرادف للملحدين وكمضاد للمؤمنين، مع وجود سورتين شهيرتين فى القرآن (المؤمنون، الكافرون) ففهم الناس أن الكلمتين متناقضتان فى المعنى.

والآية التى يتنصَّل فيها الإسلام من اعتقاد المسيحيين ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**..﴾ يشرحها عبد الكريم الجيلى فى كتابه (الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل) بحسب المعنى الأصلى لكلمة الكُفر، وهو الإخفاء؛ فيقرِّر أنهم كفروا: أى ستروا حقيقة الألوهية، وقالوا بأنها مخصوصة بالمسيح وحده، مع

أن الألوهية متجلية فى الكون كله! فالذى يُقصر التجليات الإلهية على مظهر واحد، هو كافرٌ ببقية المظاهر الإلهية المتجلية فى الكون ؛ أى أنه يخفيها بعدم اعترافه بها.

وبناءً على المعنى الأصلى للكلمة، نقول فى كلامنا اليومى: كفَّارة، لمن غاب عنا؛ لأن الكفر هو الإخفاء الاختفاء. ونقول: كفَّارة الذنوب، لوجوه الإحسان التى تغطى وتُزيل آثار الذنب. ونقول: كافر بالنعمة، إذا لم يعترف بها وأخفاها.. وبالمناسبة، فإن صوابها: كافر النعمة.

على أننى لا أقصد هنا مجرد الإبانة عن المعنى اللغوى والحقل الدلالى لكلمة (كُفر) وإنما أود الإشارة إلى ماهو وراء ذلك، فهذه الكلمة قد كثر تردُّدها فى السنوات الثلاثين الأخيرة، كواحدة من آثار ما يسمى موجةَ المد الدينى، وكوسيلة من وسائل القمع الاجتماعى. ولابد هنا من الانتباه إلى أن صفة الكفر، صارت بيننا اتهامًا سابق التجهيز، قابلًا للانطباق على أى فرد من المخالفين فى الرأى، حتى لو كان الذى (اختلف) شيخًا جليلًا. ومن هنا، لم يتورَّع قتلة الشيخ الذهبى عن اغتياله، بدعوى أنه خارج عن حدود الدين؛ ومن ثم فهو عندهم: كافر! وهذا الفتى الجاهل الذى سعى لذبح نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل، فعل ذلك لاعتقاده، أو لأنهم قالوا له: إن الكاتب الكبير كافر! وهذه البلاد الأوروبية التى تقود ركب الحضارة المعاصر، ونُوفد إليها طلابنا لتلقى العلم المعاصر، هى عند الكثيرين: ديار الكُفر!

ولست هنا بصدد الدفاع عن أولئك، ولا الاعتذار لهؤلاء. ولست أنوى الخوض أصلًا فى مسألة التكفير، وإنما مرادى الإشارة إلى أن اتهامات الكفر، بل منطوق كلمة (الكفر) ذاتها؛ لاينتشر إلا فى أزمنة الأزمة والضعف، ولايشتهر إلا على ألسنة الضعاف من الأفراد والجماعات. أما فى فترات الصحو وأزمنة التحضر، فإن لفظة الكفر بكل معانيها اللغوية وحقولها الدلالية، تكاد تختفى بالكلية، وينعدم استخدامها كتهمةٍ سابقة التجهيز، تستعمل للنيل من المخالفين عند اللزوم!

ولا أريد هنا أن أزيد ببيان الأثر العكسى المتبادل بين التفكير والتكفير، فذلك الأمر من الوضوح بحيث لايستوجب مزيدًا من التوضيح، على أن تهمة الكفر المرتبطة بتخلف الجماعة، لم تظهر فقط عند المسلمين؛ وإنما نراها أيضًا عند غيرهم من أهل الديانات الثلاث (السماوية) ولكن الحكم المترتب على هذه التهمة تدرَّج شيئًا فشيئًا.. على النحو التالى:

حَـــرْم

تنصرف هذه الكلمة على وجوه كثيرة، فينصرف معناها إلى نواحٍ عديدة. ومقصودنا الآن تحديدًا هو (الحرم) بفتح الحاء وسكون الراء، وهو مصطلحٌ خاصٌ يقترب من معنى (الحرمان) لكنه لايطابقه تمامًا؛ إذ إن الحرم، هو مفهومٌ كنسىٌّ خاصٌ يعبر عن العقوبة التى تُفرض على المسيحى الخارج عن العقيدة، وهو الشخص الذى يوصف باللفظ الكنسى: هرطوقى، المعادل فى الفكر الإسلامى لوصف: كافر.

ولا يمكن فهم طبيعة كلمة (حَرْم) إلا بالنظر فى طبيعة الديانات الثلاث التى نسميها سماوية، مع أن أىَّ دينٍ هو سماوىٌّ ومرتبط بالسماء بالضرورة. كما لا يمكن فهم حدود الكلمة، إلا بالنظر إلى تاريخ مدينة الإسكندرية، التى صاغت الفكر الدينى المسيحى، على نحوٍ لاتكاد مدينة أخرى من المدن القديمة (العظمى) تصل إليه.. وفى ذلك نقول:

أما اليهودية فهى ديانةٌ عرْقيةٌ فى الأساس، ولا يجوز النظر إليها على اعتبار أنها رسالة سماوية، إلا مجازًا. فاليهودىُّ هو مَنْ كانت أمه يهودية! وعلى ذلك، فلابد لليهودى من أن يكون منتميًا إلى واحدة من القبائل اليهودية الاثنتى عشرة، التى يرجع إليها نسبُ أى شخص يهودى. وبالمناسبة، تجب الإشارة إلى أن اثنين من أكبر القبائل اليهودية: المؤابيين والعمُّونيين، هما نسل ابنتى (لوط) النبى، اللتين أسكرتاه فى ليلتين متواليتين، فضاجعهما تباعًا: الكبرى فى الليلة الأولى،

وفى الليلة التالية الصغرى! فحملت الأولى بجدِّ القبيلة الأولى: مؤاب، وحملت الابنة الثانية بالطفل: بن عمِّى، الذى صار فيما بعد، جَدّ القبيلة الأخرى (هم الذين يقولون ذلك فى التوراة) وبالطبع، فهناك مشكلة كبيرة تواجه مفهوم السلالات اليهودية، وتكذِّب أوهام النقاء العرقى. أعنى مشكلة وجود القبيلة الثالثة عشرة، الآسيوية، التى تهوَّدت لما تهوَّد حاكمها؛ ووجود يهود الفلاشا ذوى الأصول الزنجية والملامح الإفريقية الصريحة. وهم الذين نقلتهم دولة إسرائيل مؤخرًا، من أثيوبيا بعد سقوط حكم النجاشى هيلاسلاسى، وأطلق أبناء عمومتنا من اليهود على عملية نقلهم إلى إسرائيل، اسمًا توراتيًا هو: بساط سليمان.. وبالمناسبة، فإن (سليمان) الذى هو عند المسلمين نبىٌّ من أنبياء الله، هو أصلًا عند اليهود (ملك) استهل فترة حكمه الملكى، بقتل أخيه المتنافس معه على العرش، وقتل قائد جيوشه الذى كان بطلًا عسكريًّا!

المهم، أن صفة (اليهودى) هى صفةٌ عرقيةٌ تتعلق بالنسب والسلالة، وبالتالى فإن اليهودى قد يكون متدينًا، أو يكون ملحدًا، لكنه يظل رغم ذلك، ورغم أنفه: يهوديًّا. فلا سبيل لنزع هذه الصفة عنه بحال من الأحوال، مادام قد وُلد من أمٍّ يهودية. وقد جاءت المسيحية أصلًا، كحركة إصلاح لليهودية، وكان يسوع المسيح يهوديًّا، ولذلك اهتم اليهود ببيان نسب أمه مريم، حين حاكموه. وقد قال المسيح لتلاميذه: إلى طريق الأمم لاتمضوا.. والمقصود بالأمم هنا، غير اليهود. والمقصود بعدم المضى إليهم، عدم الدعوة والتبشير بينهم.

غير أن بطرس الرسول، دعا وبشَّر (كرَّز) بين الأمم، فانتشرت المسيحية انتشارًا واسعًا، خاصةً بعد مجىء مرقس الرسول إلى مدينة الإسكندرية التى بشَّر فيها ودعا للدين الجديد، ثم قُتل (استشهد) ودفن فيها جثمانه بكنيسة بوكاليا بالإسكندرية، ثم سرق الإيطاليون (البنادقة) جثمانه، ونقلوه إلى البندقية (ڤينيسيا) وبنوا فوقه كنيسة سان ماركو البديعة، وبعد قرون عاد جزءٌ من الجثمان للإسكندرية.. المهم، أن المسيحية صارت ديانة عالمية غير مقصورة على الانتماء العرقى، مثلما هو الحال فى اليهودية. وكان اليهود إذا خرج بينهم نبىٌّ يقول إنه

(المخلص) امتحنوه، ثم كذَّبوه، وأحالوا أمره إلى الرومان الذين كانوا يمثلون السلطة المدنية (العسكرية) الحاكمة، للتصرُّف معه باعتباره من الأدعياء. وكان هذا غاية أمرهم، وأقصى ماكان يمكن لهم أن يفعلوه! وأما المسيحيون فقد سَنُّوا سُنَنًا بعدما استقرت أمور ديانتهم، فكانوا إذا خرج أحدهم عن العقيدة التى تؤمن بها هذه الكنيسة أو تلك، يعقدون (المجمع) الكنسى للنظر فى أمره، فإن ثبت عندهم خروجه، عن الإيمان القويم، كان نصيبه الحرم أو الشلح.

شَــــلْـح

فى التقاليد المسيحية، يمكن نزع صفة الإيمان عن شخص، بعقوبة كنسية تسمى الحرم، وهى العقوبة التى تسمى أيضًا (الشلح) إذا ما كان الشخص يحتل رتبة كنسية فى الأكليروس، فكان قسًّا أو أسقفًا. ففى هذه الحالة، يسمى عزله عن رتبته شلحًا، فهو مشلوح أى معزول عن الدرجة الكهنوتية التى كانت له. أما إذا كان من دون رتبة أو درجة كنسية، فإن إخراجه من حظيرة المؤمنين، يسمى: (حرم).. وكلتا الكلمتين تنطق بتحريك الحرف الأول وسكون الحرف الثانى، مثلما هو الحال فى كلمة كُفْر! وكما أشرنا فيما سبق، لا يمكن أن نتعرف إلى مفهومىْ الحرم والشلح، إلا بعد النظر فى تاريخ المدينة العظمى (الإسكندرية) التى أسهمت الإسهام الأكبر فى صياغة الفكر المسيحى، فنقول فى ذلك :

فى الإسكندرية وغيرها من كبريات المدن، عانى المسيحيون ويلات عصر الاضطهاد الرومانى، فاستمسك أهل الديانة بما هم عليه، إلا طائفة من الناس ضعفت عن الاحتمال، ولم تصبر على فنون الأذى الرومانى الهادف إلى رَدِّ المسيحيين عن ديانتهم بحمل صليب كبير على كتفه طيلة الوقت، ومن هنا صار المسيحى يعرف بأنه صاحب (عظمة زرقاء) من أثر ثقل الصليب على عظام كتفه!.. ويقال إن الذى فعل هذا، هو الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

المهم أن عصر الاضطهاد الرومانى للمسيحيين انتهى، فظهرت مشكلة (التائبين) أو العائدين مرة أخرى إلى حظيرة الديانة. وقد وافق البعض من رءوس الكنائس على رجوعهم، ورفض البعض الآخر ذلك. وكانت أغلب الآراء الكنسية السكندرية تميل إلى الرفض، وإلى فرض عقوبات ورقابة على هؤلاء، قبل الموافقة على عودتهم وعودة أبنائهم إلى الديانة. ومع أن هذه المشكلة لم تستمر زمنًا طويلًا، إلا أنها أدت إلى النظر فى طبيعة المؤمن بالمعنى الكنسى، فالمسيحى ليس مسيحيًا بالنسب والانتماء العرقى مثلما هو الحال فى اليهودى، فلابد من ضوابط تحكم الإيمان.

وفى الإسكندرية، ظهر قسيسٌ لا تحبه الكنيسة المرقسية، ولا تطيق سماعَ اسمه، على الرغم من مرور ألف وسبعمائة عام على هرطقته. أعنى آريوس الذى ذهب مذهبًا يخالف الرأى اللاهوتى السائد فى الإسكندرية، خاصةً بعدما ذهب إلى أنطاكية، وتعرَّف هناك إلى آراء بولس السميساطى وغيره من القائلين بأن يسوع المسيح هو نبى من أنبياء الله.

وثارت كنيسة الإسكندرية برئاسة أسقفها فى هذا الوقت (إسكندر) وتزامن ذلك مع حرص الإمبراطور قسطنطين الكبير على إرضاء المسيحيين فى العالم؛ لأنهم كانوا يمثلون نسبة كبيرة نسبيًّا (عشرة فى المائة) من مجموع سكان الإمبراطورية الرومانية. وجرت وقائع كثيرة لامجال هنا لذكرها، لكن المهم أن رؤساء الكنائس عقدوا اجتماعًا (مجمعًا مسكونيًّا) بمدينة نيقية سنة 325 ميلادية، وتم فيه الحكم على آريوس بالحرم؛ أى بالخروج عن نطاق الإيمان المسيحى. وتم فى هذا الاجتماع النيقى المقدس، إقرار أول (قانون إيمان) يلتزم به كل مسيحى. ومن بعد ذلك تعددت المجامع الكنسية المحلية والمسكونية (العالمية) للنظر فى العقائد المخالفة للعقيدة القويمة (الأرثوذكسية) وتم خلالها تعديل قانون الإيمان، كما تم إقرار العقوبات على الخارجين عن نطاق العقيدة. ثم كان مجمع خلقيدونية سنة 451 ميلادية، وفيه انقسمت الكنائس الكبرى، وصار لكل كنيسة مذهبها وقانون الإيمان الخاص بها. وبالتالى، تأكدت العقوبات التى يمكن أن ينالها الشخص الذى يخالف ما استقر من الاعتقادات الإيمانية فى قانون هذه الكنيسة أو تلك، وهى عقوبات معروفة تتدرج

من الإدانة إلى الحرم إلى الشلح. وكلها تتضمن الحكم بخروج هذا الشخص عن نطاق الدين، وتسلبه صفة (المسيحى) من دون مساس بدنى به أو عقوبات جسدية، اكتفاءً بالازدراء الذى سوف يلقاه وتلقاه أسرته معه.

وجاء الإسلام بتسمية أخرى لمن يولد مسلمًا، ثم يخرج بإرادته عن العقيدة الدينية، وجاء الفقهاء بحكمٍ فقهىٍّ يطبق عليه. وكانت التسمية هى (المرتد) وكان الحكم هو (القتل) وإباحة الدم، مع أن قتال المرتد وقتله باسم الدين، كان فى زمن أبى بكر الصدِّيق؛ وأما فى القرآن الكريم، فالآيات تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**..﴾ ولم يرد فى المصحف الشريف حكم بقتل الذى يرتد.. غير أن الأمر انحسم مع امتداد دول الإسلام، لصالح الحكم على الخارج عن الإسلام بالقتل، بعدما كانت العقوبة عند المسيحيين معنوية، غير متضمنة الإيذاء البدنى، وكانت قبلهم عند اليهود، مسكوتًا عنها تمامًا.. وهكذا تدرج الأمر من اليهودية إلى المسيحية إلى الإسلام، فتدبَّر.

29 قُثَم

لعله من المناسب أن نُنهى هذا الكتاب بكلمة دالة على حالة ذهنية عامة، صارت تسود مجتمعنا المعاصر؛ على أمل أن نلفت النظرَ إليها، أو على الأقل، نتوقف عندها متأملين. ومبتدأ الأمر، أننى نشرت مقالًا بعنوان (قثم) فثارت ثائرة الكثيرين. ولسوف أورد فيما يلى المقال المنشور، بنصه، ثم نعود للكلام عن الحالة الذهنية العامة التى أشرتُ إليها.

* * *

صاح صاحبى غاضباً، ونفض ذراعيه فى الهواء اعتراضًا على ما ذكرته خلال كلامى معه عن الأسماء العربية، من أن نبينا كان اسمه (قثم بن عبد اللات) قبل محمد وأحمد ومحمود، وأنه ﷺ حمل هذا الاسم (قثم) إلى أن بلغ من عمره ما يزيد عن الأربعين عامًا.. زعق صاحبى بما معناه أن كلامى غير صحيح، لأنه لم يسمع بذلك من قبل، وبالتالى فهو غير صحيح! فسألته إن كان قد سمع من قبل أن النبى ﷺ له عَمٌّ، كان اسمه هو الآخر (قثم) وهى كلمة عربية قديمة تعنى المعطى، وتعنى الجموع للخير، كما أنها اسم الذكر من الضباع ؟.. فاحتقن وجه صاحبى غيظًا، واتهمنى بأن كل ما قلته غير صحيح، وأنه لايوجد أىُّ أصل يؤكِّده، ولا أى مرجع.

تناولتُ من رفوف مكتبتى كتاب الإمام الحنبلى الشهير ابن الجوزى الذى عنوانه: «المدهش».. فتحت لصاحبى الصفحات ليرى أن ما قلته له مذكورٌ قبل تسعة قرون من الزمان، وشرحتُ له أن ابن الجوزى أحدُ أهم العلماء فى تاريخ

الإسلام، وأنه فقيهٌ حنبلىٌّ جليل لم يكن فى زمانه مثله، ومؤرِّخٌ مشهورٌ، وخطيبٌ كان الخليفة يحرص على سماع دروسه.

حَارَ صاحبى لحظةً، ثم اهتدى لفكرة ملخصها أنه لن يقبل كلام ابن الجوزى أيضًا، وأنه لن يقتنع إلا بأول كتاب، وأقدم كتاب فى سيرة النبى ﷺ! فأخبرته أن كتب السيرة المبكرة مفقودة منذ أمدٍ بعيد، ولم نعثر على أى مخطوطة فى (السيرة) من الأعمال التى كُتبت فى القرنين الأول والثانى الهجريين.. وهنا تنهَّد صاحبى مرتاحًا، وهو يقول ما معناه: إذن، فلا شىء مما تقوله صحيح.

راح صاحبى لينام، ورحتُ أفكر فينا، وفى هذا العنف الكامن بداخلنا والثورة الجاهزة للإعلان عن نفسها، وللتصدير أيضًا، لأتفه الأسباب، خاصةً فيما يتعلق بتلك الأمور التى لم نعتد عليها. وتذكرت العلامة ابن النفيس، وحزنتُ عليه، وعلينا! فقد قال لنا هذا الرجل، وهو أيضًا عالمٌ وفقيهٌ شافعىٌّ لم يكن فى زمانه مثله؛ قبل ثمانية قرون من الزمان. هذه العبارة التى لم نلتفت أبدًا إليها. وهى بالمناسبة، ولكى لا يكذِّبنى أحد؛ موجودةٌ فى كتابه الذى لم يزل مخطوطًا لم ينشر، وعنوانه (شرح معانى القانون) تقول عبارة ابن النفيس، التى أرجو أن نقرأها بهدوء:

وربما أوجبَ استقصاؤنا النظر عُدُولًا عن المشهور والمتعارف، فمَنْ قَرَعَ سمعَهُ خلافُ ماعهده، فلا يبادرنا بالإنكار، فذلك طيشٌ؛ فرُبَّ شَنعٍ حقٌ ومألوف محمودٍ كاذبٌ، والحقُّ حقٌّ فى نفسه، لا لقول الناس له، ولنذكر دومًا قولهم: إذا تساوتِ الأذهانُ والهممُ، فمتأخرُ كُلِّ صناعة خيرٌ من متقدِّمها.

* * *

وحين نشرت هذه المقالة، لم أكن أتوقع أن تثير هذه (المقالة) ما أثارته من هوجة انتقادٍ عارم، تندِّد بطرح الموضوع أصلًا. وعلى الضفة الأخرى، وجدتُ نص المقالة منشورًا فى عدة مواقع على الإنترنت، من تلك المواقع التى تهاجم الإسلام والمسلمين، وتحرص على الحطِّ من شأن النبى. ثم زاد الطين بلةً ما نشره كاتب

تونسى فى كتاب ضحل المستوى، يذكر فيه مسألة (قثم) هذه، على سبيل التهليل والطبل والزمر. وبالطبع، عنى بالردِّ عليه الغيورون على الإسلام ونبيه، فهاجموه وهاجمونى معه على اعتبار أننا من الفصيل نفسه.

وفى واقع الأمر، فإن مقصدى الأول لم يكن التأريخ لحياة النبى، ولا عمل بحث فى السيرة النبوية؛ فهذا أمرٌ ليست المقالات موضعه. وإنما كل ما فى الأمر أننى ضربت مثالًا واحدًا للتدليل على الثورة الجاهزة فى قلوب الناس، إذا طرق أسماعهم أمرٌ لم يعتادوه؛ كما يظهر من عبارة ابن النفيس المذكورة.. غير أن الذى حدث فعلًا هو أن كثيرًا من الناس ثاروا، وذهبوا بالأمر مذهبًا يؤكِّد ما كنتُ أنبِّه إليه أصلًا.. وتكسَّرت النصال على النصال، وساد الهرج، فوجدت الأنسب أن أغلق هذا الباب بالكلية، وأحرص من بعد ذلك على إيراد الأمثلة المحايدة غير المثيرة لحفيظة أهل زماننا هذا.. زماننا الكسيح.. الزاعق.. الموتور.

الموضوعات

أعمال الدكتور يوسف زيدان

1 - المقدمة فى التصوف، لأبى عبدالرحمن السلمى (تقديم وتحقيق).
2 - عبدالكريم الجيلى فيلسوف الصوفية.
3 - الفكر الصوفى.
4 - شرح فصول أبقراط لابن النفيس (دراسة وتحقيق).
5 - شعراء الصوفية المجهولون.
6 - ديوان عبدالقادر الجيلانى (دراسة وتحقيق).
7 - ديوان عفيف الدين التلمسانى (دراسة وتحقيق).
8 - قصيدة النادرات العينية للجيلى، مع شرح النابلسى (دراسة وتحقيق).
9 - الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر.
10 - عبدالقادر الجيلانى، باز الله الأشهب.
11 - رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).
12 - المختصر فى علم الحديث النبوى، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).
13 - المختار من الأغذية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).
14 - شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبدالكريم الجيلى (دراسة وتحقيق).
15 - فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى (دراسة وتحقيق).
16 - التراث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات.
17 - فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الأول).
18 - فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الثانى).
19 - نوادر المخطوطات بمكتبة بلدية الإسكندرية.
20 - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الأول).
21 - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الثانى).
22 - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الثالث).
23 - فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الأول: المخطوطات العلمية).
24 - بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية.
25 - التقاء البحرين (نصوص نقدية).

26 – فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (الجزء الأول: التصوف، التفسير، السيرة، الحديث).
27 – حى بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها.
28 – المتواليات (دراسات فى التصوف).
29 – المتواليات (فصول فى المتصل التراثى المعاصر).
30 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الثانى: التصوف وملحقاته).
31 – فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور.
32 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الثالث: التاريخ والجغرافيا).
33 – ابن النفيس، إعادة اكتشاف.
34 – فهرس مخطوطات شبين الكوم.
35 – فهرس مخطوطات المعهد الدينى بسموحة.
36 – فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (الجزء الثانى: أصول الفقه وفروعه).
37 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الرابع: المنطق).
38 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الخامس: الحديث الشريف).
39 – فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا.
40 – فهرس مخطوطات دير الإسكوريال (إسبانيا).
41 – ماهية الأثر الذى فى وجه القمر، لابن الهيثم (دراسة وتحقيق).
42 – مقالة فى النقرس، للرازى (دراسة وتحقيق).
43 – مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية.
44 – التصوف.
45 – المخطوطات الألفية.
46 – الشامل فى الصناعة الطبية، لابن النفيس (ثلاثون جزءًا).
47 – كنوز المخطوطات فى مدن العالم (طشقند).
48 – كنوز المخطوطات فى مدن العالم (الإسكندرية).
49 – مخطوطات الطب والصيدلة بالإسكندرية.
50 – ظل الأفعى (رواية).
51 – أعمال مؤتمر المخطوطات الألفية.
52 – أعمال مؤتمر المخطوطات الموقَّعة.
53 – عزازيل (رواية).
54 – كلمات (التقاط الألماس من كلام الناس).

أحـــدث إصــــدارات

الدكتور

يوســـف زيـــدان

1- كلمات (التقاط الألماس من كلام الناس).

2- المخطوطات الألفية.

3- إعادة اكتشاف ابن النفيس.

4- التراث المجهول (إطلالة على المخطوطات المنسية).

5- المختصر فى علم أصول الحديث.

6- رسالة الأعضاء.

7- المختار من الأغذية.

8- شرح فصول أبقراط.

دار نهضة مصر للنشر

كلمــات

التقاط الألماس من كلام الناس



الكلمات عمومًا هي رَسْمُ العالم في الأذهان، فالوعى الجماعى والفردى يصوغ صورة العالم فى الذهن، عبر عدد من الكلمات التى تتألف منها اللغة؛ ولذلك فإننا حين نفكّر، وحين ندرك، وحتى حين نحلم؛ فإننا نقوم بتلك الأنشطة الذهنية كلِّها، من خلال اللغة والكلمات.. ومن ثَمَّ، فالكلمات هى مفاتيحُ المعرفة، وهى حدودُ المعانى، وهى وجودُ الأشياء فى العقل الإنسانى، وربما فى العقل الإلهى أيضًا! بحسب ما جاء فى الآية القرآنية البديعة:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.

د. يوسف زيدان

دار نهضة مصر للنشر

6 221133 336154

www.nahdetmisr.com